

القديس غريغوريوس بالاماس



عن القديسين الهدوئيين

الثلاثية الأولى



تعريب دير القديس جاورجيوس - دير الحرف
١٩٩٥

القديس غريغوريوس بالاماس

الدفاع عن القديسين الهدوئيين

الثلاثية الأولى

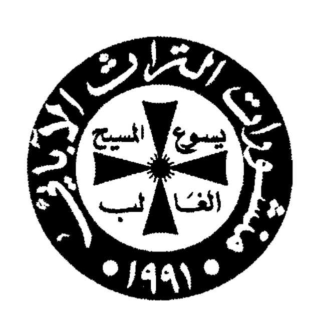
تعريب دير القديس جاورجيوس
دير الحرف

القديـــس غريغوريـــوس بالامـــاس

الدفـــــاع
عـن
القديسين الهدوئيين

الثلاثية الأولى

تعريب دير القديس جاورجيوس
دير الحرف



منشورات التراث الآبائي
١٩٩٥



أيقونة السيد (عام ١٨١٥) في كنيسة دير القديس جاورجيوس - دير الحرف

توطئـــــة

. تقتصر «منشورات التراث الابائي» على تعريب مؤلفات ٱباء الكنيسة ونشرها، كما يدل عليه اسمها، وذلك لأهمية هذه المؤلفات في تراث الكنيسة، وافتقار المكتبة العربية اليها.

. ونظراً للصعيد الروحي العالي الذي تتدرج فيه هذه المؤلفات، و«لإطلاقيتها»، فقد يبدو معظمها صعباً وليس لجميع الناس، ان لم نقل لجميع المؤمنين.

. ولكنها، بالتأكيد، ليست غير ذات فائدة للملتزمين من المؤمنين حقاً. ذلك اننا كثيراً ما نكتفي بأن نحيا ايماننا على صعيد خارجي، صعيد سطح المعلومات أو الممارسات، لا على صعيد عمق الكيان. ولذا نرى هذا الايمان لا يثمر عملياً .. لا يثمر سلاماً عميقاً وفرحاً، ولا محبة مبذولة لله وللناس، ولا توبة واتّضاعاً وصبراً الى المنتهى. بل يبقى معظمنا في نوع من تأرجح بين قليل من الاستقرار النفسي والروحي وحالات من الضياع أو اليأس، أو حتى بين شبه اليقين والشك .. ان لم نقل بين التردد والإلحاد العملي.

. فيأتي الاباء ليقولوا لنا ان الايمان يعاش ايضاً على صعيد

أعمق، على صعيد آخر غير صعيد الممارسات الطقسية، والصلوات المألوفة، والمبادئ الأخلاقية التي لا تتعدّى التهذيب الاجتماعي العام.

. يأتون ليقولوا لنا كيف يعاش الايمان الحيّ في ملئه :

في عدم محبة العالم ، والتوجّه الكلي الى الله، في الهدوء، والصمت، والصلاة الدائمة، في احتواء الرب يسوع في القلب، ومعاينة نوره ومجده، بل التحوّل الى ذلك النور الإلهي، بعد الامتلاء من حياة الله وروحه القدوس، في نشوة وغبطة.

. لا شك أن هذا أمر صعب ونادر ولكنه يتمّ بنعمة الله.

. ثم لا شك انه أمر لا بدّ منه، ولو عند قلّة، لكي يبقى للمسيحية معناها في هذا العالم : «أنتم نور العالم». تُرى اذا انطفأ هذا النور كلياً، هل تبقى مسيحيةٌ حقاً ؟

. فالكنيسة بحاجة الى من يعيش الاباء، الكنيسة بحاجة الى عيش كامل سرّ المسيح وملئه، لأجل خلاص الناس، لأجل مجد الله ..

المقدمة

سيرة القديس

● ولد القديس غريغوريوس بالاماس في العام ١٢٩٦ في عائلة أرستقراطية من آسيا الصغرى هاجرت الى القسطنطينية بسبب الاجتياح التركي. كان في السابعة لمّا توفي والده فتعهّده الامبراطور البيزنطي أندرونيك الثاني الباليولوغي فتربّى في البلاط.

● درس الدروس المألوفة في ايامه ولمع فيها ولكنه لم يتابع دراسته الدنيوية اذ فضّل عليها السيرة الرهبانية.

● ففي العام ١٣١٦، اي في العشرين من عمره، قرّر ان يترهّب رغم وعود الامبراطور له بمستقبل باهر. كان قد تأثر بجوّ عائلته التقية (١) وعاشر آباء روحيين أشهرهم المطران ثيولبتس الفيلادلفي الذي لقّنه «التيقظ» و«الصلاة العقلية»، فضلاً عن ان والده كان قد ارتدى الزيّ الرهباني قبل وفاته.

● ولكن غريغوريوس كان قد ورث عن ابيه مسؤولية العائلة وهو كبير إخوته. فحلّ المشكلة بأن عرض الترهّب على ذويه فدخلت امه وشقيقتاه مع معظم خدمهم في أديار العاصمة. أما هو وشقيقاه فانطلقوا الى جبل آثوس سيراً على الاقدام.

---

١) كان والده عضواً في مجلس الشيوخ، وحدث يوماً ان وجّه اليه الامبراطور سؤالاً في إحدى جلساته فلم يسمعه لأنه كان مستغرقاً في «الصلاة القلبية»، فاحترم الامبراطور صلاته وأمسك عن استشارته.



● مارس السيرة الرهبانية في جبل آثوس ما يزيد على الخمس عشرة سنة فكانت له مدرسة روحية خبر فيها الحياة الرهبانية خبرةً عميقة، واطّلع اطّلاعاً واسعاً على مؤلفات الآباء في مكتبات الجبل الغنيّة.

● أمضى اولاً مع شقيقيه ثلاث سنوات قرب دير فاتوبيدي «في الصوم والسهر واليقظة الروحية والصلاة الدائمة غير المنقطعة» بإرشاد راهب اسمه نيقوديمس. ثم بعد وفاة اخيه الصغير ثيودوسيوس ووفاة الراهب مرشدهم ذهب وأخاه الآخر مكاريوس الى دير اللاّفرا الكبير، فأضحى هذا ديره الأمّ كل حياته.

● مارس في دير اللاّفرا خلال ثلاث سنوات حياة الشركة مع رهبان الدير (عُيّن فيه مرتلاً)، ثم انتقل الى منسك كلوسّيا حيث تنسّك مدة سنتين بإرشاد راهب ذائع الصيت اسمه غريغوريوس.

● ثم حوالي العام ١٣٢٥ اضطرّ مع كثيرين من الرهبان المقيمين خارج أسوار الأديار الكبيرة الى مغادرة الجبل المقدس بسبب غزوات الاتراك، فقرّر الذهاب الى فلسطين وسيناء لزيارة الأماكن المقدسة. ولكنه توقف في مدينة سالونيك ولم يتابع سفره (١). في سالونيك انضمّ الى نادٍ روحي يرأسه إسيدوروس تلميذ القديس غريغوريوس السينائي. وكانت غاية النادي نشر الروحانية الهدوئية (٢) في كل الأوساط وعدم اقتصارها على الرهبان.

---

١) بعد ظهور القديس ديمتريوس له على ما يبدو (حسب الكاتب فيلوثيوس)

٢) المبنية على الصلاة القلبية، صلاة اسم يسوع في العزلة والصمت والهدوء الداخلي.

● في العام ١٣٢٦ رُسم كاهناً في سالونيك بناء على إصرار أصدقائه. ثم أسّس منسكاً على جبل قرب بلدة بيريّه مع عشرة رهبان آخرين وترأسه مدة خمس سنوات ونسك فيه نسكاً شديداً : عزلة تامة في الصمت وصلاة القلب الدائمة خلال الايام الخمسة الاولى من الاسبوع، وقداس إلهي واحاديث روحية مع الاخوة يومي السبت والاحد.

● في العام ١٣٣٠ عاد الى جبل آثوس بسبب غزوات الصرب فنسك في منسك القديس سابا قرب دير اللافرا واتّبع فيه الطريقة النسكية عينها موازناً بين العزلة الشديدة والشركة الجماعية فكان يتردد على دير اللافرا لإقامة القداس الإلهي احياناً وفي الأعياد المهمّة.

● حوالي العام ١٣٣٥ ـ ١٣٣٦ عيّن رئيساً لدير إسفجمينو الذي كان يضمّ مائتي راهب. فاعتنى فيه عناية خاصة بحسن أداء الخدم الليتورجية، إضافة الى الوعظ. ولكن يبدو انه لم يتّفق مع رهبانه لشدة غيرته الإصلاحية، فعاد الى منسكه.

● وآنئذٍ برزت المشكلة اللاهوتية مع مناوئي السيرة الهدوئية، فانصرف للدفاع عنها بكتابة الرسائل والأبحاث ـ وأهمّ ما ألّف في هذا المضمار كتاب «الثلاثيات للدفاع عن القديسين الهدوئيين»، وهو المؤلّف الذي نبدأ بتعريبه الآن.

● في العام ١٣٤٧ رُسم مطراناً على سالونيك فأظهر غيرة رسولية شديدة في مختلف المجالات، تشهد لها مواعظه. وقد وعظ وعظاً عنيفاً ضد المظالم الاجتماعية في سالونيك. ولكن مواعظه كانت تنحو دائماً منحىً لاهوتياً حول سرّ المسيح.

● في العام ١٣٥٤، أثناء سفرة له الى بيزنطيا قبض عليه الأتراك وعلى من معه، فأُوقف حوالي السنة في آسيا الصغرى، فأشاد بحسن معاملة الأتراك لهم، كما أبدى اهتماماً بالإسلام وانفتاحاً على المسلمين (١).

---

١) كان يتناقش ودّياً مع اسماعيل حفيد الأمير التركي أورخان في مواضيع لاهوتية.

- توفيّ في سالونيك في ١٤ تشرين الثاني العام ١٣٥٩
- في العام ١٣٦٨ أعلن قداسته البطريرك فيلوثيوس ومجمعه المقدس وعيّن الأحد الثاني من الصوم للاحتفال بذكره.

انه يبقى، بعد القديس ديمتريوس شفيع مدينة سالونيك، القديس الذي يجلّه السالونيكيون إجلالاً كبيراً.

مؤلفاته

- لم يبدأ بالاماس في الكتابة إلاّ في العام ١٣٣٤ (أي في الثامنة والثلاثين من عمره). وقد اضطرّ الى الاسترسال في الكتابة للدفاع عن الرهبان الهدوئيين الذين أخذ يهاجمهم الفيلسوف الكلابري برلعام في موضوع إمكان معرفة الله ورؤية النور الإلهي وإشراك الجسد في الصلاة.

- يمكن تصنيف أعمال القديس كما يلي : المؤلفات اللاهوتية والدفاعية ثم المؤلفات الروحية ثم المواعظ، علماً بأن الوجه اللاهوتي والروحي والرعائي لا يغيب عن كل أعماله.

المؤلفات اللاهوتية والدفاعية : كثيرة ومتنوّعة، تتضمّن أبحاثاً في انبثاق الروح القدس من الآب، وأبحاثاً ومقالات ورسائل كثيرة، ومئوية واحدة لرحض آراء برلعام ومن يرى رأيه (كأكنرنيوس وغريغوراس). وأهمّ هذه الأبحاث، كما رأينا، كتاب «الدفاع عن القديسين الهدوئيين في ثلاث «ثلاثيات» (Triades) (١) المشار إليها أعلاه.

---

١) تحتوي كل منها على ثلاثة أبحاث.

المؤلفات الروحية : قليلة ولكنها تساعد على وضع لاهوت بالاماس في إطاره الروحي وتكشف لنا شخصيته وتقواه العميقة، ومعرفته الواسعة للآباء وبصورة خاصة طريقته في عدم بحث المسائل الروحية دون أساسها العقائدي، فتأتي في نطاق تصوّر شامل للانسان وللكشف الإلهي الواصل اليه.

ومن هذه المؤلفات : سيرة القديس بطرس الآثوسي ومقالات في الصلاة ونقاوة القلب والخلاص والفضائل وثمار الممارسة الروحية وغيرها، ورسالة في الاسكيم الكبير، وصلوات في مناسبات مختلفة، وملخّص للأخلاق المسيحية.

المواعظ : المنشور منها ٦٣ موعظة تمتاز بغناها وتنوّعها والطابع الواقعي لعرضها حقيقة المسيح والكنيسة (لا الطابع الرمزي المصطنع)، يرمي بها بالاماس الى النهضة الكنسية المبنية ليس فقط على الروحانية الرهبانية بل على مجمل تقليد الكنيسة، بما فيه غناه الليتورجي، وعلى المسؤولية التي يُلقيها على المسيحي في المجتمع. همّه كواعظ ان يُعلن لسامعيه أساس السرّ المسيحي وجوهره، ويفهمهم واقع الخلاص الحاصل بالتجسد، وحضور هذا الواقع في الكنيسة بالكلمة الإلهية والأسرار الكنسية. ذلك ليجعل الحقيقة الكنسية أكثر فعّالية في الكنيسة كلها.

ولا يفوته أبداً ان يرى ويعبّر في عظاته كلها عن الوحدة العميقة القائمة بين العقيدة والحياة، بين السرّ المسيحي وتطبيقه في التصرف اليومي. اننا نراه مثلاً يقرّظ الفقر جداً وينقد الإسراف في الشراهة واحتفالات الكرنفال شبه الوثنية والمظالم الاجتماعية، كما يلحّ على وجوب حضور القداس الإلهي والتناول المتواتر والصوم واتخاذ أب روحي والاعتراف له قبل المناولة ومطالعة الكتاب المقدس الخ .. وهذا كله بالرجوع والاستناد المباشر الى محور سرّ الخلاص.

هذا ولا تخلو عظاته من البعد الأخروي اذ ان اشتراكنا في نعمة الفداء هو استباق للمجيء الثاني ولدخول الملكوت. فالفصح، كما يقول، هو «مقدمة للدهر الآتي».

● أما أسلوبه فبسيط وحيّ، وفي بعض الاحيان عنيف. ولا يخلو من الترداد والتطويل الناجمين ربما عن عادة الخطيب والواعظ.

الظروف التي أدّت الى تأليف الثلاثيات

في العام ١٣٣٠ وصل الى القسطنطينية من كلابريا (جنوب ايطاليا) برلعام اليوناني وبرز سريعاً كعالم وفيلسوف. ولكن لما بدأ يتعاطى اللاهوت انحرف (١) فانبرى له بالاماس من منسكه بالرسائل اولاً : نعم ان الله لا يُعرف كما يقول برلعام، ولكن ألا يعتلن ؟ ان المسيح بتجسده أعطى الناس معرفة فائقة الطبيعة تختلف عن المعرفة العقلية، ولكنها حقيقية جداً وأكثر حقيقةً من كل معرفة فلسفية.

فالتمس برلعام حينذاك ان يعرف خصمه، فعاش فترة من الزمن في مناسك في سالونيك والقسطنطينية. فاطّلع على طريقة صلاة الهدوئيين التي تشرك الجسد مع النفس. فطفق يهاجمهم في سلسلة من أبحاث جدلية، فصّل فيها تعليمه عن معرفة الله ومفهومه للصلاة والصوفية. واتّهم الرهبان ببدعة «المصلّين» لأنهم يدّعون رؤية الجوهر الإلهي بعيون الجسد، في حين ان معاينة الله المباشرة متعذّرة.

حينذاك باشر بالاماس بكتابة ثلاثياته الشهيرة.

أهمية الثلاثيات

انها نصوص أساسية تقدّم لأول مرة عرضاً لاهوتياً شاملاً لروحانية الرهبان الشرقيين. وهكذا فهجمات برلعام كانت للكنيسة الارثوذكسية فرصة لتحديد منزلة الهدوئية نسبةً لعقيدة الخطيئة والتجسد والفداء ونعمة الأسرار الكنسية، وذلك بلسان بالاماس، الذي تبنّته وتبيّنت ذاتها فيه. وفي الوقت نفسه غربلت التقليد السابق مزيلةً

١) كان متأثراً بروح عصر النهضة الذي كان بدأ يتحرك في ايطاليا. فزعم ان الله لا يُعرف إطلاقاً إلاّ عن طريق الفكر.

منه العناصر المتعارضة مع روحانيتها (خاصة روح الافلاطونية الحديثة)، وتبنّت الممارسات والتعاليم المتآلفة مع المفهوم الكتابي والمسيحي لله وللانسان.

ورداً على اتّهام الرهبان ببدعة «المصلّين» «لرؤيتهم الجوهر الإلهي بعيون الجسد» تبنّت الكنيسة في مجامع القرن الرابع عشر (أهمّها مجمع العام ١٣٥١) التمييز بين الجوهر الإلهي الذي يفوق كل إدراك وإشعاعات «القوى» الإلهية الصادرة عنه والتي تحمله الينا، وهي قوى غير مخلوقة (énergies incréées). فالميستيكية المسيحية تندرج في إطار المخطط الإلهي للخلاص: فالله يجعل نفسه منظوراً لأن الملكوت الآتي يسبق فيتحقق حقيقةً في الكنيسة. وكما ان المسيح كان يسبق ويُظهر ذاته لأنبياء العهد القديم الذين بشّروا به، فإن الروح القدس يؤهّل القديسين للمعاينة منذ الآن، فيتقبّلون هذه الخيرات ويعاينونها مسبقاً بمثابة باكورة. انهم يحققون ملء العربون الذي يتلقاه جميع المسيحيين بالمعمودية، ويعلنون سرّ الخلاص ليس فقط بأقوالهم بل بسيرتهم. وهذه الوظيفة النبوية يقوم بها الرهبان بصورة خاصة.

فحوى الثلاثية الأولى

البحث الأول: هل ان دراسة العلوم الدنيوية مفيدة؟

جواباً عن سؤال أحد الرهبان طالباً الردّ على الذين يتهمون الرهبان بالجهل (١) وينفون امكان معرفة الله عن غير طريق الفلسفة، يهاجم بالاماس بفصاحة بليغة أسس تفكير برلعام: ليست الفلسفة الدنيوية الطريق الوحيد الى الله .. بل لا تقدر

١) المقصود هنا برلعام، والسؤال هو من باب الاستعارة على الأرجح.



ان تقود اليه البتة. لقد جهّل الله حكمة هذا الدهر. فالله يعتلن في المسيح، وكل فلسفة يُقضى عليها نسبةً لهذا الكشف الإلهي ..

البحث الثاني : هل على الهدوئيين ادخال ذهنهم الى جسدهم ؟

جواباً عن سؤال آخر، يتناول هذا البحث صلاة يسوع المرتبطة بالتنفّس والتي كان استهزأ بها برلعام. انه بحث يساعد على إدراك مفهوم الانسان المبني على الكتاب المقدس ومعظم الآباء : ان جسد الانسان يصبح بعد المعمودية هيكلاً للروح القدس، فينبغي ان يشترك هو ايضاً في الصلاة. ونجد في نهاية البحث لائحة مهمة بأسماء معلّمي الهدوئية البيزنطيين.

البحث الثالث : في النور والاستنارة والكمال في المسيح

بعدما دحض بالاماس في البحثين الأولين تجربة الخلط بين الرجاء المسيحي والمعرفة العقلانية ثم تجربة روحنة الرجاء المسيحي، يجيب عن سؤال ثالث فيفصّل تعليمه عن الاسخاتولوجية (الأخيرية) المحققة منذ الآن في الحياة بالمسيح. ويورد فيه نور التجلي على جبل ثابور كمثال من الكتاب المقدس يبيّن كيف ان كياننا المتجدد بالأسرار الكنسية ـ نفساً وجسداً ـ يستطيع ان يتمثّل جسد المسيح ويشترك منذ الآن بالغبطة المقبلة.

ان هذا البحث الطويل أساسي لفهم موقف بالاماس من مسألة معرفة الله. انه يورد طابع لا مخلوقية النعمة ولكنه لا يأتي بعد الى التمييز بين جوهر الله وقواه. فهذا التمييز سوف ينتج عن الجدل اللاحق مع برلعام وتلميذه أكنديينس.

الثلاثية الثانية

تتبع مخطط الثلاثية الأولى : فالبحث الأول يتناول فلسفة هذا الدهر الغبية ... والمعرفة الحقيقية التي تؤتي الخلاص. والبحث الثاني يتناول صلاة اسم يسوع وطريقة ممارستها، والبحث الثالث النور المقدس. وهو أطول الأبحاث كلها في الثلاثيات، يدحض فيه بالاماس رأي برلعام الذي ينّحي الخبرة الميستيكية الى نطاق الرموز، ويثبّت بالعكس ان المسيحية هي جوهرياً اشتراك حقيقي بحياة الله غير المخلوقة ونوره ومجده.

الثلاثية الثالثة

تبحث في التأليه. يتناول البحث الأول التأليه وحالة التألّه التي أصبحت في متناول الانسان في المسيح. والبحث الثاني الوجه العقائدي للتألّه والتمييز بين الجوهر الإلهي والقوى الإلهية اللا مخلوقة، والبحث الثالث يثبت مخالفة برلعام للآباء وكونه مبتدعاً، بالإضافة الى حججٍ جديدة دعماً للتمييز بين الجوهر والقوى.

الآباء الذين يستشهد بهم بالاماس

تُعَدّ استشهادات بالاماس الآبائية بالمئات. اكثرها لديونيسيوس الأريوباغي (بسبب رجوع برلعام اليه). ولكن الاستناد الأساسي هو على القديس مكسيموس المعترف. ويرد ايضاً كثيراً يوحنا السلمي وإفاغريوس (تحت اسم نيلوس) واسحق السرياني. ولمكاريوس الكبير مكان مميّز للتخفيف من عقلانية إفاغريوس. ويرد ايضاً كثيراً القديسون الكبادوكيون ويوحنا الذهبي الفم. ثم هناك نصوص ليتورجية (أناشيد عيد التجلي). ويذكر بالاماس ايضاً سمعان اللاهوتي الجديد ونيكيفورس الهدوئي، كما يذكر ثيولبتس الفيلادلفي والبطريرك أثناسيوس القسطنطيني وغيرهما من المعاصرين.

فكر بالاماس وأهمية مؤلفاته الجدلية

ليس بالاماس راهباً ذا صوفية شخصية كسمعان اللاهوتي الجديد، كما ليس هو مبدعاً لميتافيزيقا جديدة أو مؤلفاً «لمجموعة» لاهوتية شاملة. فالظروف وحدها وضرورة الدفاع عن الحياة الروحية الحقة جعلته لاهوتياً ومعلّماً لمنهج روحي هو بالنتيجة منهج الآباء. ففي رسائله وكتاباته كان هدفه الوحيد التعبير عن وجدان الكنيسة والحقيقة المعلنة لها منذ البدء. لقد استعان بمؤلفات الآباء واستند اليها ولكن ذهنه الحيّ لم يكتفِ بترددادها بل ابتكر «تأليفاً» جديداً (synthèse) للتقليد الآبائي، تبنّته الكنيسة.

تناول في مؤلفاته الجديدة موضوعين رئيسيين : موضوع معرفة الله (هل يُعرف وكيف يُعرف)، وموضوع اشراك الجسد في الصلاة والاستنارة والتألّه.

في الموضوع الأول نظم لاهوتاً يوفّق بين كون الله متعالياً ومتسامياً إطلاقاً، لا يُقتنى ولا يُدنى منه وفائق الادراك بالطبيعة، وبين خبرة المسيحيين الروحية لله وإحساسهم به خبرةً واقعية كلّياً. فميّز بين جوهر الله الذي لا يدرك إطلاقاً وبين أفعال أو «قوى» الله غير المخلوقة النابعة من جوهره، والتي، في محبته للبشر، يجعل نفسه بها معروفاً، (ولكن لا في جوهره).

الى جانب المعرفة العقلية التحليلية والاستدلالية التي تعجز عن معرفة الله هناك معرفة الله معرفةً حدسية مباشرة تتم بفعل النعمة الإلهية وعن طريق الذهن في حالة معاينة الله (١). علماً بأن الخبرة الصوفية الأصيلة ليست سوى الثمرة الطبيعية لتجسد المسيح ونعمة المعمودية.

إنما النعمة تعمل فينا بقدر حفظنا للوصايا. فلا بدّ اولاً من التنقية من الاهواء

١) الذهن (نوس nous) هنا هو أعلى النفس، نقطة اتصال الانسان بالإلهيات.

بالنسك الجسدي وحفظ القلب والتحرر من «الأفكار» للوصول الى بساطة النظر الداخلي بساطة كلية.

واذ يمارس الذهن اذ ذاك قوته الطبيعية، بالرجوع الى الذات والتيقظ، يستطيع ان يتحد بالله : يتجمع كلياً في ذاته ويتخطاها متسامياً عليها فينسلخ عن كل رباط مادي ويلتصق بالصلاة الدائمة .. فيكشف طريقاً جديداً سرّياً للصعود الى السموات .. هو الصمت الداخلي ضمن الظلمة الإلهية التي لا تدرك.

هكذا يعرف الانسان الله ويتّحد به ويتألّه. وهذا التأليه واقعي الى أقصى حد. ليس هو، بالطبع، اتحاداً أقنومياً بالله، ولكنه تداخل حيّ بين الفعل البشري وقوة الله غير المخلوقة. الله يسكن كله فينا ونحن نسكن كلنا فيه. نتألّه. ان النعمة (الخالقة والفادية والمقدِّسة) ليست شيئاً يهبه الله بقدر ما هي ظهور لوجود الإله الحيّ.

تكمن فرادة بالاماس في انه طرح المشكلة بوضوح وحلّها بوضوح. وما هو في الفكر العقلاني غير قابل للحلّ أصبح التعبير الأصحّ للسرّ الإلهي.

امّا الموضوع الثاني - موضوع اشتراك الجسد في الصلاة والتأله - فتناوله بالاماس، كما رأينا، دفاعاً عن روحانية الرهبان الهدوئيين الذين استهزأ بهم برلعام لممارستهم صلاة يسوع في وضع جسدي معيّن (١).

ففسّر بالاماس طريقتهم هذه لاهوتياً : ان الجسد لا يبقى غريباً عن علاقة الانسان بالله. فهو قادر ان يشترك فيها عن طريق التنفّس (٢) كما يفعل عن طريق

---

١) حنيي الرأس على الصدر وتوجيه النظر نحو القلب وتنفّس بطيء وإنزال الذهن الى القلب مع حركة التنفّس.

٢) واذا أساء البعض ممارسة هذا المبدأ لجهلهم أو ضعفهم البشري فهذا لا يُضعفه أصلاً.



الصوم والسهر وغيرهما. فمن جرّاء الدور الخلاصي لجسد المسيح، الانسان مخلّص **كلّه**. الجسد نفسه مخلَّص. وقد دلّ على ذلك بهاء المسيح الجسدي على جبل ثابور.

وصلاة يسوع هي الوسيلة المميَّزة لوعي حضور المسيح الساكن في القلوب منذ المعمودية، والوسيلة الفضلى لتحقيق نعمة المعمودية. اذ لا بدّ لهذه الغاية قبل كل شيء من الانتباه الى الذات والدخول الى القلب (٣). وهذا يتمّ بيقظة الذهن حين يعمل بانتباه تام ساهراً ومجاهدا ليبقى ضابطاً لذاته ضد هجمات «الافكار». فبتكرارنا لدعاء اسم يسوع في يقظة الذهن هذه نقابل ذكر الشر «بذكر الله». هذا وان دعاء الذهن يرتبط صحيحياً بتوق الروح القدس فينا، في عمق القلب (اذ هو يصلّي فينا). فالترداد ليس ترداداً آلياً بل هو ثمر ملءٍ داخلي. غاية صلاة يسوع ان نحصر «اللا جسديّ» داخل «الجسديّ» بتلقّي القلب للذهن لاكتشاف استعلان مجد المسيح فيه وترك حلاوة النعمة الحميمة تعمل في القلب وتوحّده. انه توحيد كامل لقوى النفس كلها في سبيل حبّ الله وبإحياء حبّ الله لها. انه اتجاه للكيان تلقائي وثابت نحو الله، ماء حيّ يتفجّر من النفس كمن ينبوع دائم.

وهكذا تتحقق معاينة نور المسيح التي هي غاية السيرة الهدوئية في آخر المطاف. فلكي نعاين الله ينبغي ان نقتني «عيناً إلهية». بل ينبغي ان ندع الله يعاين نفسه فينا. متى أصبحت النفس الله باشتراكها بالنعمة الإلهية وكفّها عن كل نشاط عقلي وحواسّي وكل نشاط جسدي، حينذاك يظهر الله وحده في النفس وفي الجسد معاً،

---

٣) فالقلب المتجلّي بالنعمة الإلهية هو «المكان» «للإحساس الروحي». ان لفظة «قلب» تدلّ معاً عند الهدوئيين (كما عند مكاريوس الكبير واسحق السرياني) على العضو الجسدي وعلى وظائف الذهن (النوس) والعقل والروح باعتبار ان القلب هو مقرّها وعضوها.

وهو الذي سيعاين .. ان الملَكة الفائقة الطبيعة التي يهبنا اياها حضور الروح لنعاين الله تصير ذاتها نوراً بكليتها وتصبح مشابهة لمن تعاين. ولكونها نوراً تتحد به بدون امتزاج. تعاين ذاتها فإذا هي نور وتعاين موضوع معاينتها فهو ايضاً نور، وواسطة المعاينة فهي ايضاً نور. ذلك هو الاتحاد : ان يكون كل هذا واحداً. نحن فقط نعي اننا نور واننا نعاين نوراً يختلف عن كل الخلائق ...

وغنّي عن القول، مرة أخرى، ان الله، مع هذا كله، يبقى داخل سرّه. انه لا يخرج من سرّه انما يعطيه للآخرين مُخفياً إياهم في الظلمة الإلهية. فالقديسون يدركون الله ولكن بصورة غير مدركة.

هذا وان بالاماس أكّد أهمية الأسرار الكنسية والليتورجيا التي تمدّنا بعمل جسد المسيح المؤلّه. فإنه لا بديل لهذه الاسرار وان كناّ لا نشعر بمفعولها فوراً ...

وهكذا فمقابل الحكمة الدنيوية واللاهوت الغربي قام بفضل القديس غريغوريوس بالاماس لاهوت حيّ أمين للآباء نفخ في الروحانية البيزنطية قوة جديدة.

سؤال أول

يتهمون الرهبان بالجهل. فما الجواب ؟

سمعت البعض يقولون بوجوب التماس الحكمة الدنيوية، وبأن الرهبان ما داموا لا يقتنونها لا يستطيعون اجتناب الجهل والاعتقادات الباطلة، وبأننا، حتى لو بلغنا اللاهوى الأقصى لا نستطيع اقتناء الكمال والقداسة ما لم نجتن العلم من كل جوانبه والثقافة الهللينية بصورة خاصة (لأن هذه ايضاً عطية من عطايا الله كالمواهب التي اعطيت للأنبياء والرسل بإعلان الهي) وبأن هذه الثقافة تكسب النفس معرفة الكائنات وتغني ملكة المعرفة التي هي قوة النفس الأسمى. فهي لا تطرد من النفس سائر الشرور وحسب، لان الجهل علة الاهواء كافة وأساسها، بل تأتي بالإنسان الى معرفة الله. فإنه يتعذّر معرفة الله عن غير واسطة خلائقه . . . فلما سمعتهم يتكلمون هكذا لم أقتنع أبداً، لأن خبرتي اليسيرة في الحياة الرهبانية كانت تبيّن لي العكس تماماً. ولكني لم اتمكّن من مقاومتهم اذ هم يتباهون قائلين : «لسنا فقط نهتم بأسرار الطبيعة ونقيس الادوار الفلكية وندرس حركات النجوم المتعارضة ولقاءاتها وأطوارها وبزوغاتها، ونبحث بإباء عما ينجم عنها، ولكننا ايضاً - ما دامت اسباب ظاهرات الطبيعة كائنة في العقل الالهي الاول والخالق، في حين ان صورها موجودة في النفس البشرية - نسارع الى معرفة هذه الظاهرات ونتخلص من وسوم الجهل باستخدام مناهج التمييز والاستدلال والتحليل، وبهذا نتوخّى ونقتني مماثلة الخالق ونبقى أحياء حتى بعد الموت». فشعرت بأني عاجز عن الردّ على هذه الاقوال فصمتّ امامهم. ولكني اليوم أسألك ايها الأب أن تعلمني ما يجب ان اقول للدفاع عن الحقيقة حتى اكون مستعداً «للمجاوبة عن سبب الرجاء الذي فينا» كما يقول الرسول (١ بط ٣ : ١٥).

للكلّي الطوبى رئيس اساقفة تسالونيك

غريغوريوس

البحث الاول في السلسلة الاولى

دفاعاً عن القديسين الهدوئيين

تحديد الضوابط والحدود التي يفيدنا تعاطي الدروس الدنيوية ضمنها



جواب اول

ليست حكمة الفلاسفة سوى حكمة نسبية

١ ـ يا اخي، «يحسن ان يثبّت القلب بالنعمة» كما يقول الرسول (عب١٣: ٩)، ولكن من اين لنا ان نعبّر بالكلام عن «الصلاح» الذي يفوق الكلام ؟ فعليك اذن، حتى في هذه الظروف، ان تشكر الله لانه منحك تلك النعمة التي لا تخطر ببال الذين يظنون في وفرة حكمتهم انهم يعرفون كل شيء. وحتى ان كنت تعجز عن الرد عليهم مع علمك بعدم معرفتهم للحقيقة فأنت مخطىء في حزنك لعجزك. ان قناعتك انت مبنية على الخبرة : وبالتالي فإنك سوف تبقى ثابتاً لا تتزعزع اطلاقاً والى الابد. اذ لك ما يدعمك على الدوام الا وهو أسّ الحقيقة. اما الذين يستندون الى البراهين المنطقية فسيغيّرون رأيهم بلا شك، وان لم يكن لك اليوم اي دور في هذا التغيير، لان «كل قول يناقضه قول آخر» اذ انه قابل للنقض بالتأكيد ويتعذّر في النهاية اكتشاف القول الغالب، بل ليس من قول يقدر ان يتوقّع سوى انغلابه. وقد دلّ على ذلك بوضوح الهلّينيون، ومن يتبع تعليمهم من الحكماء، بدحض بعضهم بعضاً على الدوام وبترك بعضهم بعضاً يُدحَضون بمظهر تفوّق برهانٍ كلامي.

ليست هي حكمة الله

٢ ـ فتكون بالتالي قد رددت برأيي كفايةً وكما ينبغي على الذين يهتمون طيلة حياتهم بالفلسفات الدنيوية ـ الذين يبحثون عن المعرفة في الثقافة الخارجية ويبالغون في مدحها ـ ان قلت لهم فقط ما يلي : «يا أصدقائي الأفاضل انكم بهذا لن تقتنوا معرفة أكثر مما ستقتنون جهلاً». فالذين يسعون وراء المجد البشري ويعملون كل شيء ليكتسبوه يحصلون بالحري على هوان اكثر مما يحصلون على مجد، ما دام المرء لا يستطيع ارضاء جميع الناس. هكذا فالذين يبحثون عن المعرفة لدى حكماء الخارج يجتنون جهلاً اكثر من

معرفة كما يقولون هم انفسهم (١)، لان الآراء تختلف فيما بينها ويقاوم بعضها بعضاً ولكل منـها منافسون اكثر مما له من أنصار. ويخشى من عدم مصادفة «علل» هذه الآراء في العقل المبدع. فالرسول يسأل قائلاً : «من عرف فكر الرب ؟» (رو ١١ : ٣٤). ولعدم معرفة هذه «العلل» فإن الحكمة الدنيوية لن تمكّن من العثور على أيّ من صورها في النفس. فالمعرفة التي تدّعي البحث عمّا هو على صورة الله بالاستناد الى تلك الحكمة هي بالتالي معرفة باطلة. وباقتنائها لا تصير النفس ابداً مماثلة للحقيقة. ان هذه المعرفة لا تستطيع أن تقودها الى الحقيقة، وتبجّح الذين يتباهون باقتنائها هو بالتالي تبجّح باطل. فليستمعوا الى بولس الذي يسمي الحكمة التي من الخارج حكمة «جسدية» (٢ كو ١ : ١٢) ويصف المعرفة التي «تنفخ» (١ كو ٨ : ١) بأنها من «ذهن بشري» (كو ٢ : ١٨)

فمن أين للحكمة الجسدية أن تمدّ النفس بالصورة الالهية ؟ «فاعتبروا دعوتكم. فليس منكم في نظر البشر كثير من الحكماء ولا كثير من المقتدرين ولا كثير من ذوي الحسب والنسب» يقول الرسول (١ كو ١ : ٢٦). فإن شرف الجسد واقتداره لا يستطيعان أن يجعلا النفس شريفة أو قوية. وحكمة الجسد، هي ايضاً، لن تعطي بالتالي أية حكمة للذهن. فبدء الحكمة أن نكون حكماء كفاية لنميّز ونفضّل على الحكمة السفلى الأرضية والباطلة الحكمة النافعة حقاً السماوية والروحية، الحكمة التي تأتي من الله وتقود اليه وتجعل مقتنيها شبيهين به.

القدرة الشريرة التي للخطيئة

٣ ـ ولكننا، كما يقرّ به هؤلاء أنفسهم، نمتلك داخل أنفسنا صور «العلل» الكائنة في «العقل» المبدع. فما الذي يجعل هذه الصورة عديمة الجدوى منذ

١) الفضل الاول للفلاسفة اليونانيين كان،بحسب برلعام، تأكيدهم عدم امكان معرفة الله.



البدء ؟ أليست الخطيئة، ومعها جهل الوصايا والازدراء بها ؟ لماذا نحتاج الى عقيدة لنشاهد هذه الصور مع كونها مسجّلة فينا ؟ أليس لأن جزء النفس الألمي (الأهوائي) أفسدها حين تمرّد ليفعل الشرّ ؟ أليس لأنه شوّش طاقة الرؤية في النفس وأبعدها عن الجمال الاول ؟ فعلينا بالتالي، اذا أردنا إبقاء الصورة (الالهية) ومعرفة الحقيقة سالمتين، أن نحرص قبل أي شيء آخر على اجتناب الخطيئة، ومعرفة شرعة الوصايا بحفظنا اياها، والمثابرة على ممارسة سائر الفضائل والرجوع الى الله بالصلاة ومشاهدة الحقيقة. لانك، وان دزرست الفلسفة الطبيعية كلّها، منذ آدم حتى النهاية، فستبقى بدون النقاوة أحمق لا حكيماً. لكنك، ولو عدمت هذه الفلسفة الطبيعية، سوف تقتني حكمة الله الذي غلب العالم، شرط ان تطهّر نفسك وتنقّيها من الشِيَم والاعتقادات الرديئة، وسوف تدخل مسروراً الى الأبدية «مع الله الحكيم وحده» (رو ١٦ : ٢٧). ان التعاليم التي ذكرت لا تتناول حركة السماء والاجرام السماوية وكبرها ولا ذيولها ولا الأرض وما يحيط بها ولا المعادن والحجارة الكريمة المحفوظة في باطنها ولا الأحداث التي تحصل في الهواء على أثر عصف ريح مضاعفة. فإنها بدعة هلّلينية أن نركّز كلّ حميّتنا واهتمامنا على طالبي معرفة مثل هذه الأشياء. فإن هؤلاء الرواقيين كلّهم هم الذين يعرّفون العلم بأنه غاية المعاينة.

الثقافة الدنيوية والحياة المسيحية

٤ ـ وها ان البعض اليوم، كما تخبرنا، يزدرون الغاية الموضوعة أمام المسيحيين بحجة أنها جد متواضعة، وهي الخيرات التي لا ينطق بها، الموعود بها في الدهر الآتي ! وهم اذ لا يعرفون سوى العلم التجريبي يدخلونه الى كنيسة الذين يمارسون حكمة المسيح. فيقولون ان الذين لا يقتنون معارف علمية هم جهلة وغير كاملين، اذ على الجميع أن يتعاطوا كلياً الدراسات الهللينية ويهملوا التعاليم الانجيلية (لأنها لا ترفع عن المرء أبداً

جهل علومهم)، ويبتعدوا مستهزئين عمّن قال : «كونوا كاملين» (١ كو ١٤ : ٢٠ أنظر متى ٥ : ٤٨)، و «ان كنا في المسيح نكون كاملين» (أنظر في ٣ : ١٤ ـ ١٥ وكو ١ : ٢٨) و «الانسان كامل في المسيح» (أنظر في ٣ : ١٤ ـ ١٥ وكو ١ : ٢٨) و«نتكلم بين الكاملين» (١ كو ٢ : ٦)، لأنه يجهل اطلاقاً هذه العلوم ! أما أنا فعندما تكلمت عن التنقية الخلاصية لم أكن أقصد التجريد من هذا الجهل الدنيوي، اذ اني أعرف أن ثمّة جهلاً لا يعاب ومعرفة تلام. ولذا فإنك ليس بتجريد ذاتك من هذا الجهل بل من جهل الله والعقائد الالهية ـ ذلك الجهل الذي حظّره اللاهوتيون ـ وبتحسين كل نمط حياتك طبقاً للقواعد التي رسمها هؤلاء اللاهوتيون، تمتلىء من حكمة الله وتصير فعلاً صورة الله ومثاله. وهكذا تبلغ الكمال بمجرد حفظ الوصايا الانجيلية. ان ديونيسيوس مؤلف كتاب «التراتبية الكنسية» قد بيّن ذلك هو ايضاً بوضوح وفقاً لتعاليم هذه التراتبية، فإنه يقول :«إنّ تمثّلنا لله واتحادنا به، كما تعلّمنا الاسفار المقدسة، يتحققان فقط بالمحبة وممارسة الوصايا الجليلة». اذا كان هذا الكلام خاطئاً وكان بإمكان الانسان استعادة صورته (الالهية) ومعاينتها بالثقافة الدنيوية، ما دامت هذه تغيّر الطباع الى الافضل وتزيح ظلمات الجهل عن النفس، فإن حكماء اليونان يكونون اكثر مماثلة لله ويعاينونه أفضل من الآباء الذين قبل الناموس والانبياء في عهد الناموس الذين دعي معظمهم الى هذه الكرامة وهم ريفيون بسيطون ! ويوحنا، أعظم الانبياء، الم يقضِ حياته كلها في البرية منذ نعومة أظفاره ؟ أو ليس اليه يتطلّع بكل قوتهم جميع الذين يتركون العالم، بوصفه نموذجهم الاول ؟ هذا بديهي كل البداهة. وفي البرية أين كانت مدارس الفلسفة الباطلة التي يسمّيها هؤلاء خلاصية ؟ أين كانت الكتب الضخمة وأين كان الذين يفنون ذواتهم طيلة العمر في قراءتها واقناع الآخرين بالاقتداء بهم ؟ هل نجد في تلك الكتب أصول حياة التوحد والبتولية التي للنسّاك القديسين، أو بياناً مكتوباً عن الجهاد الذي جاهدوه قادراً أن يحثّ القارىء على التشبّه بهم ؟



الحكمة التي جُهِلت

٥ ـ أدعُ جانباً من كان «أعظم مواليد النساء» (متى ١١ : ١١ و كو ٧ : ٢٨). فقد ارتقى الى هذه العظمة ولم يبال قط بتلك الثقافة التي يقولون انها تقود الى الله، لأنه لم يكن قد طالع حتى الاسفار المقدسة؛ أدعه جانباً. ولكن الذي «قبل الدهور» (أنظر يو ٨ : ٥٨ وما يليه) وظهر بعده، الذي «أتى الى العالم ليشهد للحق» (أنظر يو ١٨ : ٣٧) لكي يجدد الصورة ويعيدها الى المثال الاصلي، لماذا لم يحقق لنا هذه العودة بالطرائق الدنيوية ؟ لماذا لم يقل : «ان أردت أن تكون كاملاً فاقتنِ التربية التي من الخارج، بادر الى تمثّل العلوم، حصّل علم الكائنات» ؟ ولماذا قال بالعكس : «بع ما لك وأعطه للفقراء» (متى ١٩ : ٢١)، «واحمل صليبك واتبعني» ؟ (أنظر متى ١٦ : ٢٤؛ مر ٨ : ٣٤؛ لو ٩ : ٢٣)، لماذا لم يدرّس علاقات الكواكب وأشكالها وأعدادها وأطوارها والتقاءاتها الغاشة ؟ لماذا لم يحلّ مصاعب المسائل الفيزيائية لينتزع ظلمات الجهل من نفوسنا ؟ لماذا كان التلاميذ الذين دعاهم صيادين، أميين، فطّين، وليس حكماء ؟ أليس «ليخزي حكماء العالم» كما يقول بولس ؟ (١ كو ١ : ٢٧). هل يمكنه ان يخزي الذين في رأي أولئك القوم يقودوننا اليه ؟ لماذا «حمّق حكمتهم»؟ (١ كو ١ : ٢٠). لماذا استحسن أن «يخلّص المؤمنين بجهالة الكرازة»؟ (١ كو ١ : ٢١) أليس لان العالم «لم يعرف الله بالحكمة»؟ (١ كو ١ : ٢١). وماذا يتعلّم اولئك الذين تتكلّم عنهم ؟ ففي حين ان كلمة الله أتى بالجسد، هو الذي «صار لنا حكمة من لدن الله» (١ كو ١ : ٣٠)، وفي حين برز النور «الذي ينير كل انسان آت الى العالم» (يو ١ : ٩)، «وطلع الفجر وأشرق كوكب الصبح في قلوبنا» (٢ بط ١ : ١٩) نحن المؤمنين، يحتاج هؤلاء الى فتيل خاص يأتي بهم الى معرفة الله انطلاقاً من فلاسفة الخارج وينصحون الآخرين بأن يشيخوا باطلاً قابعين قرب مصباح مدخّن، منقطعين عن تنقية ذواتهم في السكينة بضبطهم لافكارهم، وتاركين الصلاة الدائمة التي ترتقي بنا نحو الله.

في حسن وإساءة استعمال الدروس الدنيوية.

٦ ـ ألم يخطر ببالهم يوماً أننا لاشتهائنا شجرة المعرفة وتذوّقنا إياها طردنا من جنة النعيم ? لأننا لم نشأ أن «نفلحها ونحرسها» حسب الوصية (تك ٢ : ١٥)، واستسلمنا لمشورة الذي كان قد دخلها خلسة واغرانا بجمال معرفة الخير والشر. وها انه الآن يعد الذين لا يريدون أن يعملوا ويحرسوا قلبهم، تبعاً لتعليم الآباء، بالمعرفة الدقيقة للافلاك السماوية المتحركة والمتناسقة ولخاصيّاتها. فهذه أيضاً معرفة للخير والشر لانها لا تمتلك الخير في طبيعتها بل في نيّة الذين يستعملونها، وتتحوّل بتحوّل هذه في هذا الاتجاه أو ذاك. وبالاولى أقول ايضاً ان ممارسة لغات مختلفة وظرافتها، وقوة علم البلاغة ومعرفة التاريخ، وكشف أسرار الطبيعة ومناهج المنطق المتنوعة ومختلف وجهات نظر علم الحساب، والأقيسة المتنوعة للاشكال الغير المادية ... كل هذه هي في الوقت نفسه حسنة وردية، ليس فقط لأنها تتبع فكر الذين يستعملونها وتتخذ بسهولة الشكل الذي تعطيها اياه وجهة نظر الذين يقتنونها، بل لان دراستها ليست حسنة إلا بقدر ما تنمي في عين النفس نظراً ثاقباً. ولكن استمرار من يتعاطى دراستها حتى الشيخوخة أمر رديء. الحل الصائب هو أن يتدرّب المرء فيها قليلاً ثم ينقل جهده الى ما هو أسمى وأضمن بكثير، لان الله يعوّض تعويضاً سخياً عن ازدراء الآداب. ولذا يقول اللاهوتي الثاني (غريغوريوس النزيانزي) عن أثناسيوس الكبير ان الفائدة التي أفادها من الدراسات الدنيوية كانت تحديده «لما استحسن أن يزدري». وقد تمتع بها، حسب قوله، بالقدر الوحيد الذي به ازدراها واقتنى ما آثر عليه المسيح.

(Ad Nemesium P.G. ٣٧,١٥٥٤)

شروط التربية الصحيحة

٧ ـ ولكن الشرير الذي يسعى دائماً بخبث الى صرفنا عما هو كامل يثير المغريات في نفوسنا ويحبكها بصورة شبه دائمة بقيود محببة لدى الكثيري



الغرور. فيوسوس لنا مشيراً الى سعة هذه المعارف المتنوعة والعميقة وكثرتها، كما يشير لآخرين الى الغنى أو المجد الباطل واللذات الجسدية لكي ننشغل طيلة حياتنا بطلب هذه الاشياء ونعدم القوة الكافية لنمارس بحزم التربية التي تنقّي النفس والتي «رأسها مخافة الله» (أمثال ١ : ٧)، التي تولّد الصلاة الدائمة لله في التوبة ونخس القلب وحفظ الاوامر الانجيلية. ومتى تمت المصالحة مع الله بالصلاة وحفظ الوصايا تتحوّل المخافة الى محبة، ويتحوّل وجع الصلاة الى فرح فيزهر زهرة الاستنارة، وتُمنح معرفة أسرار الله كعبير الاستنارة لمن يستطيع أن يتحمّلها. هذه هي التربية والمعرفة الحقيقية التي لا يرى ولا حتى بدايتها - التي هي مخافة الله - المرء الغارق في حب الفلسفة الباطلة والمكتنف والمغشى بأقوالها ونظرياتها. فمن أين لمخافة الله أن تدخل الى النفس ؟ وحتى اذا دخلت من أين لها البقاء في نفس مأخوذة ومغشّاة ومشتمل عليها في محاكمات مختلفة متنوعة، ما لم تعفَّ هذه النفس عن كل شيء وتفرغ جهدها كلياً في مدرسة الله، لكي يمتلكها حبه كلياً حسب الوصية ؟ (أنظر تث ٦ : ٥، متى ٢٢ : ٣٧، مر ١٢ : ٣٠، لو ١٠ : ٢٧). لذا مخافة الله هي رأس الحكمة والمشاهدة الإلهيتين. المخافة لا تستطيع أن تساكن أي شعور آخر في النفس. انها تنفض عنها كل شيء وتصقلها بالصلاة لتجعل منها مثل لوح جاهز ليتقبّل نقش مواهب الروح.

ندامة القديس باسيليوس

٨ - على هذا المنوال علّق باسيليوس الكبير على قول فرعون لاسرائيل «انما أنتم كسالى ولذلك تقولون لنذهب ونذبح للرب» (خروج ٥ : ١٧)، فقال: «هذا هو التفرّغ الصالح النافع لمن يتعاطاه، بينما التفرّغ الرديء هو تفرغ الاثينائيين الذين لا يتفرّغون لشيء آخر إلاّ لان يقولوا او يسمعوا شيئاً جديداً (أع ١٧ : ٢١). وهو التفرّغ الذي يقلّده البعض اليوم فيقضون فيه حياتهم، والذي يرضي الأذهان الرديئة». (العظة حول المزمور ٤٥، P.G. ٢٩،٤٢٩ A) ولئلا

يقال إن باسيليوس الكبير قصد بذلك ثرثرة البلاغة فقط نذكَر بما قاله في موضع آخر مفسراً مثل سليمان الحكيم الذي ينصح «بمعرفة الحكمة والتأديب للتفطن لاقوال الفطنة» (أمثال ١ : ٢). فهو يقول : «ان البعض الذين يكرسون وقتهم في هذه الايام لعلم الهندسة الذي اكتشفه المصريون أو علم الفلك الذي يكرمه الكلدانيون، أو يهتمون بصورة عامة بالاشكال والظلال وعلم الظواهر الجوّية، قد رذلوا دراسة الاقوال الالهية. وكثيرون منهم من جرّاء حرصهم على تلك الامور قد شاخوا وهم يسعون الى ما هو باطل. ينبغي إذاً أن نميّز بين الدراسات لكي نختار المفيد منها ونستبعد الغبية والضارة» (العظة الثانية عشرة حول أمثال ٦١١ P.G. ٣١,٣٩٧ BC). أرأيت ؟ انه ينعت بالبطل والضرر والغباوة الدروس الدنيوية وحتى معرفة العلوم والمعرفة الناتجة عنها، تلك المعرفة التي يصرّح البعض ، كما تقول، أنها غاية المشاهدة التي يعتبرونها خلاصية ! ولكن باسيليوس، في رسالته لافستاتيوس الذي من سبسطية، يتحسّر على عمره لأنه قضى قسماً كبيراً منه منكبّاً على دراسة هذه العلوم. فيقول : «لقد كرّست زمناً طويلاً للاباطيل وأضعت كل شبابي تقريباً في الجهد غير المجدي الذي بذلته لتمثّل علوم حكمة قد جهّلها الله (رو ١ : ٢٢، ١ كور ١ : ٢٠). وعندما أفقت ذات يوم كما من نوم عميق وأدركت عدم فائدة حكمة عظماء هذا الدهر الذين يبطلون (١ كو ٢ : ٦) بكيت طويلاً على حياتي الشقية وصلّيت ملتمساً توجيهاً ما» (الرسالة ٢٢٣، P.G. ٣٢,٨٢٤ AB). هل سمعت كيف يصف التربية والمعرفة اللتين يحاول البعض اليوم أن يعظّموهما ؟ فقد سمّاهما «أباطيل» و«جهداً غير مجدٍ» و«حكمة قد جهّلت» و«حكمة ملغاة»، «حكمة هذا الدهر وعظماء هذا الدهر»، «حكمة تجعلنا نخسر الحياة والشيم المماثلة لشيم الله». لذا ندم عاشق الحكمة الحقيقية ندماً عظيماً لتعاطيه اياها دون أن يلقى أي توجيه للإقبال على الحكمة الحقيقية.

الحكمة الهلّلينية والنعمة الالهية

٩ ـ ولكن هناك اليوم، حسب قولك، قوم يبلغون ما لست أدري أية درجة



من الوقاحة ! فإنهم يقولون ان الانكباب على الثقافة الهللينية طوال العمر لا يعيق الكمال. فهم لا يسمعون كلام الرب القائل بالعكس : «يا مراؤون، تعرفون أن تميّزوا وجه السماء فكيف لا تميّزون زمن الملكوت ؟» (متى ١٦ : ٣). لان زمن الملكوت الابدي قد وافى، والاله الذي يهبنا اياه حاضر بيننا. فإذا كانوا يطلبون حقاً تجديد أذهانهم لماذا لا يأتون اليه بالصلاة لاقتبال كرامة الانسان القديمة، كرامة الانسان الحرّ، عوض اللجوء الى من لم يتمكنوا من تحرير ذواتهم ؟ مع أن أخا الله يعلن بوضوح ويقول : «ان كان احد تنقصه الحكمة فليطلبها عند الله يُعطَها لانه يعطي جميع الناس» (يع ١ : ٥). هل يمكن للمعرفة الناجمة عن الحكمة الدنيوية أن تطرد من النفس كل ما هو رديء ما دام ناتجاً عن الجهل، بينما لا تقوى معرفة التعليم الانجيلي نفسها على ذلك ؟ «لان ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار بل الذين يعملون بالناموس» كما يقول بولس (رو ٢ : ١٣)، والذي يعرف مشيئة الله ولا يعمل بها «سيضرب كثيراً» (لو ١٢ : ٤٧ ـ ٤٨) أكثر من الذي لا يعرفها يقول الرب. هلاّ ترى أن المعرفة وحدها لا تفيد شيئاً ؟ ولماذا التكلم فقط عن معرفة ما يجب عمله أو معرفة العالم المنظور أو اللامنظور ؟ كلاّ بل ان معرفة الله عينها، الله الذي خلق كل هذا، لن تفيد شيئاً وحدها. «فماذا تنفعنا العقائد ان كنا لا نحيا حياة مرضية لله، الحياة التي أتى الرب ليغرسها في الارض» (انظر فم الذهب في العظة حول يو ٤ : ٤ P.G. ٥٩,٥٠) ? هذا ما يقوله يوحنا، اللاهوتي الذهبي الفم. أكثر من ذلك : ليس فقط أن لا فائدة تجنى من هذه المعرفة بل هي تسبّب لنا أعظم ضرر، وهو ضرر يصيب أيضاً الذين حدّثوك هذا الحديث الذي نقلته اليّ. ماذا يقول الذي «لم يأت بسمو الكلام لئلا يتعطّل صليب المسيح» (أنظر ١ كو ١ : ١٧ و ٢ : ٩)، «الذي لم يكرز بكلام الحكمة الانسانية المقنع» (أنظر ١ كو ٢ : ٤)، «الذي لم يكن يعرف شيئاً الاّ يسوع المسيح واياه مصلوباً» (١ كو ٢ : ٤)؟ ماذا يكتب للكورنثيين ؟ «العلم ينفخ» (١ كو ٨ : ١). أرأيت ؟ ان ذروة الشر، الجرم الذي يختص به الشيطان أكثر ما يختص، أعني الكبرياء، يتولّد من المعرفة. فهل يمكن أن ينجم كل هوى عن الجهل ؟ هل ينقي العلم النفس ؟

يقول : «العلم ينفخ والمحبة تبني». أترى ؟ انه يوجد علم خالٍ من المحبة لا ينقي النفس اطلاقاً بل يقتلها، ما دام خالياً من المحبة التي هي رأس كل فضيلة وجذرها وجسمها. كيف يتيح لنا العلم الذي لا يبني أي شيء صالح (لان البنيان ميزة المحبة) أن نكون على صورة من هو صالح ؟ مع أن وجه العلم هذا الذي يقول عنه الرسول انه ينفخ يمتّ الى مجال الايمان لا الى مجال الطبيعة ؟ فإذا كان هذا العلم ينفخ فكم بالأحرى العلم الذي نتكلم عنه اذ انه يمتّ الى الطبيعة والى الانسان العتيق (أفسس ٤ : ٢٢ وكو ٣ : ٩) ؟ فالثقافة الدنيوية تخدم هذا العلم الطبيعي ولا تستطيع يوماً أن تصبح روحية إلاّ اذا انتمت الى الايمان ومحبة الله، أو بالحري لا يمكنها ذلك إلا اذا تجددت ليس فقط بالمحبة بل أيضاً بالنعمة الناتجة عن المحبة، فصارت مختلفة عما كانت، أي جديدة والهية الشكل، طاهرة، مسالمة، حليمة، مقنعة، ملؤها أقوال تبني من يسمعها وثمار صالحة. ولذا دعيت «الحكمة التي تنزل من علُ» (يع ٣ : ١٧) و«حكمة الله» (١ كو ١ : ٢١ و ٣٤؛ ٢ : ٧ الخ . . .). وبما أنها على هذا النحو روحية اذ انها تخضع لحكمة الروح فهي تعرف وتتلقى مواهب الروح. أما الحكمة الاخرى فهي حكمة «دنيوية»، حكمة «نفسانية، شيطانية» كما يقول الرسول أخو الرب (يع ٣ : ١٥). فهي بالتالي لاتتقبّل مواهب الروح لانه مكتوب : «الانسان النفساني لا يقبل مواهب روح الله» (١ كو ٢ : ١٤)، بل هي عنده حماقة وضلال ورأي خاطئ. انها تحاول الغاء معظمها الغاء كلياً وتكافح علناً لكي تقلب معناها وتدخل تعليماً خاطئاً عنها قدر استطاعتها. حتى انها تقارب بعضها بحذاقة لتستخدمها لصالحها كما يفعل السحرة بالمأكولات الحلوة المذاق.

حول قول الفلاسفة :«اعرف نفسك»

١٠ ـ وهكذا فإن المعرفة الناجمة عن الثقافة الدنيوية ليست فقط مختلفة عن المعرفة الحقيقية والروحية بل هي منافية لها. ولكن يبدو أن البعض قد ضلّوا ويسعون لان يُضلّوا من يشاء أن يسمعهم. فيتكلمون عنهما كأنهما معرفة



واحدة ويقولون انها غاية المشاهدة. اليك حادثة تكشف لك شيئاً من مدى الشر الرهيب الذي وقع فيه الفلاسفة الدنيويون : فإن الشرير وهؤلاء الفلاسفة الذين يستمدّون منه مهارتهم في الشر قد سرقوا احد تعاليمنا الاكثر نفعاً ويستخدمونه كطعم خطر لتماثل الالفاظ المستعملة : «احذر لنفسك» (تث ١٥: ٩) و «اعرف نفسك». ولكن اذا بحثت عن غاية هذا التعليم لديهم وجدت لجة من الكفر. فإنهم يقولون بالتقمص ، فيعتقدون أننا لا نستطيع معرفة انفسنا وفقاً لهذا التعليم دون أن نعرف الجسد الذي كنا مرتبطين به قبلاً، والمكان الذي كنا نقيم فيه، وما كنا نعمل فيه، وما كنا نصنع. واننا انما نطّلع على ذلك بطاعتنا للروح الشرير الذي يهمسه لنا خفية وبمكر ! فهذا هو ما يقودون اليه بقولهم «اعرف نفسك»، الذين لا يستطيعون اكتشاف الخدعة ويظنون انهم يتكلمون وفقاً للآباء ! ولذا فبولس وبرنابا، اذ لم يجهلا أفكار الشرير ومساريّه، لم يوافقا اطلاقاً المرأة التي كانت تقول عنهما : «هؤلاء الرجال هم عبيد الله العلي» (أع ١٦ : ١٧). أي كلام يمكن أن يكون أكثر ورعاً من هذا الكلام ؟ ولكنهما كانا يعرفان «الذي يتراءى بزيّ ملاك نور» (٢ كو ١١ : ١٤)، كانا يعلمان ان خدّامه يقلّدون «خدّام البر» (٢ كو ١١ : ١٥)، ولذا ردّوا هذا القول الصحيح كونه لا يناسب فماً كاذباً.

أفاع للتشريح

١١ ـ هكذا عندما نسمع الهلّينيين يتلفّظون بأقوال ورعة لا نرى أنهم يوقرون الله ولا نحسبهم من عداد معلمينا، لاننا نعرف أنهم قد سرقوا هذه الاقوال من ذوينا. ولذا قال أحدهم عن أفلاطون : «ما أفلاطون سوى موسى يتكلم اللغة الاتيكية» (نومينيوس الذي من أفاميا). فنعلم اذاً أنهم، ان كان لديهم شيء نافع، فقد أخذوه من عندنا دون أن يفهموه تمام الفهم. لكننا ندرك أيضاً، بعد الفحص، أنهم يعطونه معنى مختلفاً. وان كان احد الآباء يقول ما يقوله الذين من خارج فالمطابقة تكون لفظية شفهية بينما الفكرة

جـداًمـخـتلفـة. فـالـبعض لهـم «فكر المسـيح» كـقـول بولس (١ كـو ٢ : ١٦)، والآخـرون يعبّـرون عن فكر بشـري. «كـمـا تعلو السمـاوات عن الارض كـذلك تعلو أفكاري عـن أفكاركم» (أش ٥٥ : ٩) يقـول الرب. هذا فـضـلاً عن أنه حـتى اذا كان لهـؤلاء احيـاناً فكر مشـترك مع مـوسى وسليمـان وأمثـالهم فبمـا يكون نـافعاً لهم ؟ أي انسان سليم العقل ومنتمٍ للـكنيسة يستطيع أن يستنتج من ذلك أن تعليمـهم هو من الله، إلاّ اذا كان الهـراطقة أيضـاً، الذين ظهروا بعـد المسيح، يستـمدّون تعاليمـهم من الله ما داموا لم يزعـزعوا كل الحقـيقة بعد ان اقـتبلوها من الكنيسـة؟ «كل موهبة كـاملة تنزل من عَلُ من عند ابي الانوار» كمـا قال تلميذ النور(يع ١ : ١٧).

ولكن اذا كانت المواهب الحية التي يتقبلها الهرطوقي غير مشوهة فمن اين له وهو هرطوقي أن يقدمـها للآخرين دون أن يشوههـا ؟ ان أي كائن حيّ وان تشوّه لا يفتأ يبقى حياً. أمّا إله لا يَخلق من العدم ولم يكن قبل نفوسنا ولا قبل ما يسمونه المادة العـادمة الشكل، أو بالحـري قبل المادة التي تمتلـك في ذاتها توازنها أو شكلها قبل أن تنتظم، فكيف يمكن أن يكون الله ؟ ولكي نضيف قول النبي : «الآلهـة التي لم تصنـع السمـاوات والارض فلتبـذ من الارض» (أر ١٠ : ١١)، وليبد معـها الذين يـقولون انهـا آلهة. أمـا الذين يلقّبـونهم «باللاهوتيين» و«المعلّمين» ويعتقدون بإمكان استعارة ألفاظهم اللاهوتية هل يقتضي أن نأتي حتى على ذكرهم ؟ هل يقتضي أن نبتعد عن «النور الذي ينير كل انسان آت الى العالم» (يو ١ : ٩) ونتوقع الاستـنارة من ظلمات الجهل الرهيبـة هذه، بحجة ان هناك مـا ينفـعنا حـتى فـي الأفاعـي ؟ ولكن لحم الأفـاعي ينفـعنا اذا قـتلناها وشرّحناها وأعددناها واستعملناها بكل تمييز كدواء ضد نهشاتها عينها. فالذين يقتلونها ينتـفعون مـنها ضد الافـاعي عينهـا كمـا لو كانوا يقـتلون جلياتـا جديداً بسيفـه عينه، غلياتا ينتصب ويقاومنـا و«يشتم جيش الاله الحي» (١ مل؛ ١ صم ١٧ : ٣٦)، الجيش الذي ثقفه في الامور الالهية صيّادون أميّون.

نور وظلمات

١٢ ـ على هذا المنوال نحن لا نمنع احداً أن يتلقن الثقـافة الدنيـوية اذا شاء،



إلاّ اذا اختار السيرة الرهبانية. ولكننا لا ننصح احداً أن ينكبّ عليها حتى النهاية ونحظّر اطلاقاً أن ينتظر منها اية دقة في معرفة الامور الالهية. اذ يتعذر أن يستمد منها أي تعليم أكيد عن الله. لان «الله قد جهّلها». ليس انه خلقها كذلك ـ اذ كيف يمكن للنور ان ينشىء ظلاماً ؟ ـ ولكنه أثبت عليها انها تتيه في حماقتها، دون ان يقارنها بحكمته ـ لننتبه ! ـ لاننا اذا قلنا هذا فسوف نقول ان الناموس المعطى لموسى هو ايضاً ألغي وجُهّل بعد ظهور ناموس النعمة. ولكن ان كان الناموس لم يلغ لانه من الله، فحكمة الهللينيين قد جهّلت بالتأكيد بقدر ما هي ليست من الله. ولكن كل ما هو ليس من الله لا وجود له. فحكمة الهللينيين هي بالتالي حكمة باطلة. ان الذكاء الذي اكتشفها، بوصفه ذكاء، هو من الله، لكن الحكمة ذاتها، بقدر ابتعادها عن غايتها التي هي معرفة الله، لا يجب ان تعتبر حكمة بل كسقط للحكمة، حكمة منافية للعقل، اي حكمة قد جُهّلت. ولذا يقول الرسول انها قد جهّلت، لا في تكوينها، لكن لانها تسعى الى امور هذا الدهر ولا تعرف الاله الازلي ولا تريد ان تعرفه. فبعد ان سأل الرسول «اين مباحث هذا الدهر» أضاف مباشرة: «ان الله قد جهّل حكمة هذا العالم» (١ كو ١ : ٢٠)، اي انه أبان بعد ظهوره انها قد ابتعدت عن المعرفة الحقيقية، وانها ليست حكمة في الواقع رغم تسميتها بهذا الاسم. فإن كانت اولاً حكمة فكيف أمكنها أن تصير حماقة وذلك بفعلِ الله وحكمته التي ظهرت على الارض ؟ لان «الصلاح الاسمى لا ينافي الصلاح الادنى» حسب قول ديونيسيوس العظيم (في الاسماء الإلهية ٤ : ١٩ VIV A، P.G. 3). أما أنا فأقول ايضاً ان المعقولات لا تضعف بعضها بعضاً، وأضيف أن كل شيء جميل يرى جماله يزداد بظهور الجمال الاسمى. كيف لا يكون هذا وقد ظهرت العزّة نفسها التي هي علّة الجمال ؟ ليس ان «الانوار الثانية»، أعني الطبائع الفائقة العالم، قد أصبحت لا نفع لها بظهور النور الاول الذي ينيرها. وليس ايضاً ان عقلنا وذكاءنا، الادنى بكثير من هذه الانوار ولكنه مع ذلك نور، قد اصبح ظلاماً بظهور النور الالهي، في حين انه ظهر «لينير كل انسان آت الى العالم» (يو ١ : ٩). ولكن الذي يقاوم هذا النور،

ملاكاً كان ام انساناً، يمسي ظلاماً، لانه ينفصل عنه برضاه فيتخلّى عنه.

ناموس موسى والحكمة الهللينية

١٣ ـ على هذا المنوال قاومت هذه الحكمة حكمة الله فأضحت حماقة. لو قدرت على أن تتبين وتعلن حكمة الله في الخلائق، لو كشفت ما كان مخفياً، لو كانت اداة حقيقية لإزالة الجهل، لو صارت بالمساهمة ما هو «موضوع» رسالتها «كعلّة»، كيف كان قد جهلّها من أعطى هذه الحكمة للخليقة؟ كيف لا تكون هذه الضربة التي تلقتها قد وجهت الى حكمة الله عينها البادية للكون؟ وكيف بالتالي من أقام السلام في العالم أجمع ولكل كائن بمفرده، لا يكون يقاتل نفسه علناً، ما دام علة حكمة من جهة (اذ ان حكمته قد أدخلت في النظام الكوني)، ومن جهة أخرى يجهّل هذه الحكمة بمجيئه كما يجهّل الذين تقبّلوها؟ ولكن كان ينبغي أن تكون هذه الحكمة هنا لا لتجهَّل بل لتكمَل على منوال الشريعة القديمة التي قال عنها بولس: «أفنبطل الشريعة بالإيمان؟ معاذ الله! بل نثبت الشريعة» (رو ٣ : ٣١). والرب ايضاً يحثّنا على «تصفّحها» لان فيها الحياة الابدية (يو ٥ : ٣٩)، ويقول ايضاً: «لو كنتم تؤمنون بموسى لآمنتم بي» (يو ٥ : ٤٦). هل ترى المطابقة العجيبة بين الشريعة والنعمة؟ لذا لما ظهر النور الحقيقي صارت الشريعة أفضل مما كانت لان جمالها الخفي قد ظهر. ولكن ليس هذه حال حكمة اليونانيين. فهذه كانت تخفي الحماقة وراء ستار أقوال أنيقة، سائغة، مقنعة. ولما اكتُشف عارها صارت اسوأ وسمّيت باسم الجهالة. وليست الجهالة هنا جهالة بالتسامي كما يكون الحال لو كانت فوق العقل (هذه هي التسمية السرية لحكمة الله) (أنظر ١ كو ٢ : ١٤)، بل جهالة ناجمة عن عدم معرفة الحقيقة، لانها تخلت عن الغاية التي تلائم مجرّد حكمة بشرية. ليس فقط تخلت عنها بل تاهت في اتجاه معاكس كلياً وهي تثابر على الكذب حاسبة اياها الحقيقة، وتحاول ان تفتري على الحقيقة كأنها كذب، وتثير الخليقة ضد الخالق (أنظر رو ١ : ٢٥). واليوم ايضاً ما زالت تقيم اسفار الروح ضد الروح، ضد الاعمال الروحية والرجال الروحانيين.



التذكير بالفصل الاول من الرسالة الى اهل رومية

١٤ ـ ان فلسفة حكماء الخارج الحمقاء لا تحوي اذاً ولا تظهر حكمة الله. كيف لا يكون هذا ما دام «العالم لم يعرف الله بها» ؟ (١ كو ١ : ٢١). ولكن اذ يقول بولس في مكان آخر انهم «عرفوا الله ولم يمجدوه كما ينبغي لله» (رو ١ : ٢١) ألا يحارب نفسه، هو نصير السلام ووريث السلام الفائق الطبيعة الذي فينا والذي أعطانا اياه المسيح وحده ؟ لكنه يقول فقط انهم ان كانوا قد توصلوا الى فهم الله فهم فهموه بصورة لا تليق بالله : لم يمجّدوه كما ينبغي كخالق الكل وكلي القدرة، كمن ينظر كل شيء، كالكائن الوحيد الذي لا بدء له وغير المخلوق. ولذا فإن الحكماء اذ تخلى عنهم الله منذ الزمن الذي عاشوا فيه، كما أبان بولس ايضاً، قد «أسلمهم الله الى فساد بصائرهم» (رو ١ : ٢٨)، «وعبدوا المخلوق بدل الخالق» (رو ١ : ٢٥)، وتمرْغوا في حمأة الأهواء المعيبة والدنيئة. أكثر من ذلك : فقد رسموا قوانين ونظموا مؤلفات ـ يا للهوى ويا للمكر ! ـ توافق الشياطين وتبرّر الأهواء. هل ترى كيف أن فلسفة فلاسفة العالم تحوي الحماقة منذ البدء وفي طبيعتها نفسها ؟ لم تكتسبها من الخارج. ان الذي طرحها من السماء قديماً لانها خانت الحقيقة هو نفسه جهلّها اليوم بمجيئه الى الارض لانها تنافي بساطة الكرازة الانجيلية. ولذا فالمرء الذي لا يزال يعيرها انتباه ذهنه على رجاء ان تقوده الى معرفة الله، أو أن يحظى بتطهير نفسه، يقاسي الشرور عينها التي تقاسيها هي، ومع كونه حكيماً يصبح أحمق. فالبرهان الجلي على ذلك، البرهان الوحيد والاول، هو أنه لا يقبل ببساطة الايمان التقاليد التي سلّمها الينا الآباء، مع علمه بأنها أفضل وأكثر حكمة من التقاليد الناجمة عن البحث والاستدلال البشري، وأنها تستعلن بالاعمال بدل ان تبرهن بالاقوال. هذا يعرفه ويستطيع ان يشهد له جميع الذين ليس فقط تسلّموا هذه التقاليد بل جنوا اثمارها بالخبرة ويعرفون حقيقة، في ذواتهم، ان «جهالة الله أكثر حكمة من الناس» (١ كو ١ : ٢٥)

الفلاسفة ممسوسون

١٥ ـ ولكن هذا هو فقط البرهان الجلي الاول على أن الحكماء هم حمقى. اليك البرهان الثاني الأهمّ: ان مقدرة ذلك العقل الذي أصبح جاهلاً وغير ذي وجود تحارب الذين يقبلون هذه التقاليد في بساطة قلوبهم. انها تزدري أسفار الروح على مثال الذين أهملوها وأثاروا الخليقة ضد الخالق. انها تهاجم أنشطة الروح الميستيكية التي تفعل أفضل مما يفعله العقل في الذين يعيشون بحسب الروح: تهاجمها بمهاجمتها لهؤلاء. والبرهان الثالث الاكثر جلاء هو التالي: هؤلاء الحكماء العادمو الحكمة يؤكدون انهم استمدوا حكمتهم من الله كالأنبياء، رغم أن أفلاطون في تقريظه للرجال الذائعي الصيت أمثالهم يعمد بوضوح، في القسم الاكبر من تقريظه، الى اظهارهم هاذين، فيقول: «ومن يبلغ الى نظم أعمال شعرية دون إلهام الشياطين يكون ناقصاً هو وعمله؛ وعمل المرء الرصين يخسفه عمل المجانين» (فيدر Phèdre). وأفلاطون هذا نفسه قبل أن يبدأ بالكلام عن طبيعة الكون بلسان طيمه Timée ينذر ألاّ يقول شيئاً لا يرضي الآلهة. ولكن الفلسفة التي ترضي الشياطين كيف لها أن تكون فلسفة الله وأن تصدر عن الله؟ أمّا سقراط فكان شيطان يرافقه ويلقّنه: وهو غالباً الشيطان الذي قال عنه انه أفضل الحكماء! وهوميروس يحثّ آلهة على أن تُشيد من خلاله بغضب أخيلاس القاتل، متيحاً للشيطان أن يتخذه أداة، ومُرجعاً الى الالهة علّة حكمته وفصاحته (الإلياذه I ٥ : ١). أما هيزيود فلا يكفيه أن يخضع لفعل شيطان واحد اذ الّف كتاب الـ Théogonie. ولذا يجتذب اليه تماماً تسعة شياطين معاً تارة من بييري وتارة من هيليكون. فإنه قد «امتلأ بكل أنواع الحكمة التي أعطوه اياها عندما كان يرعى خنازير في الجبل ويأكل من غار هيليكون». واله آخر «متّع بقوته» حكيماً آخر من هؤلاء الحكماء. وآخر يشهد لنفسه ويقول: «علّمتني كل شيء إلهة تتنبأ». وآخر ينذر على ذاته أن ترقص كل جوقة الإلهات في نفسه لكيما تباشر ابنة بييروس ذات النجوم السبعة وتعلّمه ما يختص بالمناطق السبع والكواكب السيّارة السبعة وميزاتها، ولكي تعلّمه اورانيا ابنة زفس بقية علم التنجيم، وأن يعلّمه



شؤون هذه الدنيا الآلهة الاخرون الذين يعتبرهم هؤلاء القوم حرّاساً لشؤون الارض.

لقد ابتعد الفلاسفة عن الفلسفة الطبيعية الحقّة

١٦ ـ هل تريد أن تلزمنا بالقول ان الذين يتكلمون عن أنفسهم هكذا علناً يقتنون حكمة الله ؟ كلاّ طبعاً، ما دمنا نهتمّ بأنفسنا وبالحكمة الحقيقية التي لا تلج نفساً مفعمة بالمكر وصديقة الشياطين. وان كانت قد ولجتها سابقاً فهي تتوارى عندما تتجه النفس نحو الشر. «لان الروح القدس المؤدب يبتعد عن الافكار الغبيّة» (حك ١ : ٥) كما يقول سليمان الذي يقتني حكمة الله وقد حرّر سفراً بشأنها. هل هناك أكثر غباوة من هؤلاء القوم الذين يتباهون بتلقّنهم أسرار الشياطين وينسبون اليهم أصل حكمتهم ؟ لان ما نقوله الآن لا نقوله عن الفلسفة عامة ولكن عن فلسفة هؤلاء. فإذا كنا كما يقول بولس لا نستطيع أن «نشرب كأس الرب وكأس الشياطين» (١ كو ١٠ : ٢١) فكيف يمكننا امتلاك حكمة الله بإلهام الشياطين ؟ هذا متعذّر اطلاقاً. فإذا كان بولس يقول في موضع ما إنّ «العالم لم يعرف الله بحكمة الله» (١ كو ١ : ٢١) فهو لا يسمّي حكمة هؤلاء الحكماء العادمي الحكمة «حكمة الله» ـ لننتبه ! ـ بل الحكمة التي نفخها الخالق في الخلائق. من عرف أنها مبعوثة من قبل الله عرف الله الذي تنبىء عنه. هذا يقتني المعرفة الحقيقية للكائنات وبالتالي حكمة الله. يصير خبيراً في حكمة الله. «كان ينبغي أن يرتقي الفلاسفة الحقيقيون من معرفة الكائنات الى علّة الكائنات» على حد قول ديونيسيوس العظيم (الرسالة السابعة B ٣,١٠٨٠ P.G.).

الحكمة الطبيعية والمسيح

١٧ ـ اذاً، ان كان الفيلسوف الحقيقي يرتقي الى العلّة فالذي لا يرتقي اليها ليس فيلسوفاً حقيقياً ولا يقتني الحكمة، بل نوعاً من ظل كاذب للحكمة

الحقيقية. ليست هذه حكمة بل انكاراً لكل حكمة. فكيف يمكن أن ندعو انكار الحكمة «حكمة الله» ؟ يبقى أن الذكاء الشيطاني، بوصفه ذكاءً، شيء حسن ولكنه رديء بقدر ما يسيء الاستعمال. فهو، مع معرفته أفضل منا لمقاييس الكون وحركات الاجسام المتحركة ولقاءاتها وتحديداتها، ذكاء عادم الذكاء وملؤه الظلمات ما دام لا يستعمل معرفته بما يرضي الله. كذلك الحكمة الهلّلينية تظن انه بإمكانها الاستناد الى حكمة الله في الخلائق، التي يحوّل الله بها فساد كائن الى ولادة كائن آخر، لتظهر أن الله ليس هو سيد كل شيء ولا خالق الكون ! انها لا ترى أن لكل شيء علة دائماً ! فترفض إجلال الاله الحقيقي «وتقابل بكفرٍ الامور الالهية بالامور الالهية» كما يقول ديونيسيوس العظيم نفسه (الرسالة السابعة نفسها)، فتصير حمقى وغبية. فكيف يمكن ان تكون حكمة الله ؟ لذلك يبيّن بولس هنا أن للحكمة مظهرين فيقول : «في حكمة الله لم يعرف العالم الله بالحكمة» (١ كو ١ : ٢١). ألا ترى أنه تكلم من جهة عن حكمة الله ومن جهة اخرى عن الحكمة وحسب التي هي سبب عدم معرفة الله؟ هذه الأخيرة هي التي اكتشفها الهلّلينييون وهي مختلفة عن حكمة الله، ويستدل عليها من جرّاء ورود كلمة «حكمة» مرتين. ماذا يقول ايضا فيما بعد حكيم الله هذا ؟ «أمّا نحن فنتكلم بحكمة الله» (١ كو ٢ : ٧). أيوافقه الهلّلينييون ام بولس يوافقهم ؟ كلا إطلاقاً ! ولذا يقصي هو نفسه امكانية مثل هذه الموافقة فيقول : «نتكلم بالحكمة بين الكاملين ولكن لا بحكمة هذا الدهر ولا بحكمة رؤساء هذا الدهر الذين يتلاشون» (١ كو ٢ : ٧)، بحكمة «لم يعرفها أحد من رؤساء هذا الدهر» (١ كو ٢ : ٨). هذه الحكمة الأخيرة هي فينا بالمسيح يسوع «الذي صار لنا من الله حكمة» (١ كو ١ : ٣٠). أما الحكمة الاخرى فلم تكن في هؤلاء القوم بل في الخلائق التي كانوا يدرسونها. لقد فتشوا طيلة حياتهم عن مبادئها وتوصّلوا الى فهم معيّن عن الله، لان الطبيعة والخليقة كانتا توفران لهم مناسبات عظيمة لهذه الغاية، والشياطين لم يمنعوا ذلك، بصورة جداً شيطانية اذ كيف كان يمكن أن يحسبوهم آلهة إن لم ترد فكرة الله على العقل البشري ؟



حماقة الفلاسفة ؟

١٨ ـ فهؤلاء القوم توصلوا اذاً الى فكرة معينة عن الله بفحصهم طبيعة الاشياء الحسية، ولكن لا الى الفكرة التي تليق بالله وتلائم طبيعته المغبوطة. اذ «أظلم قلبهم الغبي» (رو ١ : ٢١) بالشياطين الاشرار الذين كانوا يبثّون فيهم تعليمهم بدسائسهم المريعة. اذ كيف للشياطين أن يُحسبوا آلهة، كيف يؤمَن بتعليمهم حول تعدّد الآلهة لو كانت قد بدت في عقل الفلاسفة فكرة تليق بالله ؟ هكذا اذ غلّفتهم هذه الحكمة المفعمة بالحماقة والغباوة، هذا العلم الابله، افتروا على الله وعلى الطبيعة معاً : فأعطوا السيادة للطبيعة وأقصوها عن الله، على الاقل فيما يخصهم. أذاعوا الراي القائل بأن الاسم الالهي هو اسم الشياطين، واذ كانوا بعيدين كل البعد عن الوصول الى معرفة الكائنات موضوع مأربهم وحماسهم، جزموا بأن للكائنات الفاقدة الحياة نفساً وأنها تشارك نفساً أسمى من نفسها، وأن للكائنات العادمة العقل عقلاً ما دام يمكنها احتواء نفس بشرية، وأن الشياطين أكثر سموا منا، وأنهم ويا للكفر خالقون ايانا. لقد صنّفوا مع الاشياء الشريكة الأزل مع الله واللامخلوقة والعادمة العلّة، ليس فقط المادة، وما يدعونه نفس العالم كلّه، ونفوس الاشياء المعقولة غير اللابسة كثافة الجسد، بل نفوسنا عينها. فهل نقول ان أتباع مثل هذه الفلسفة يقتنون حكمة الله ؟ ما من أحد منا يمكن أن يُجنّ ليقول هذا لان «الشجرة الطيّبة لا تثمر ثماراً خبيثة» حسب قول السيد (متى ٧ : ١٨). ومن جهتي فإني أعتقد، عند تفكيري بهذا، أن هذه الحكمة لا يمكن أن تدعى حتى حكمة «بشرية»، ما دامت متناقضة الى درجة تجزم معها بأن نفس الكائنات هي في الوقت نفسه حيّة وفاقدة الحياة، عاقلة وعادمة العقل، وتعلن أن كائنات لا تمتلك بالطبيعة احساساً، ولا عضواً لهذه الملكة، تستطيع ان تحتوي نفوسنا ! وان كان بولس يدعو احياناً هذه الحكمة «حكمة بشرية» (اذ يقول : «لم يعتمد تبشيري على اسلوب الاقناع بالحكمة البشرية» (١ كو ٢ : ٤) وايضاً : «اننا لا نتكلم بكلام مأخوذ من الحكمة البشرية» (١ كو ٢ : ١٣)، فهو يستصوب أن يدعو من اقتنوها «حكماء حسب الجسد» (١ كو ١ : ٢٦)، «حكماء صاروا

حمقى» (رو ١ : ٢٢)، «مُماحكي هذه الدنيا» (١ كو ١ : ٢٠). وينعت حكمتهم بألفاظ مشابهة : هي «حكمة صارت حماقة» (١ كو ١ : ٢٠)، «الحكمة الملغاة» (أنظر ١ كو ١ : ٢٨)، «الخداع الباطل» (كو ٢ : ٨)، «حكمة هذا الدهر» التي هي «حكمة رؤساء هذا الدهر ومصيرهم للزوال» (١ كو ٢ : ٦).

ولكن ليس من شيء رديئاً بحد ذاته

١٩ ـ وأنا أسمع أيضاً الأب الذي يقول : «الويل للجسد حين لا يتناول غذاء الخارج، والويل للنفس حين لا تتقبل النعمة التي من فوق !» فالجسد سوف يفنى حين يتحوّل الى كائن فاقد الحياة، والنفس سوف تجرفها الحياة الشيطانية وأفكار الشيطان اذا ما حادت عما هو خاص بها. ولكن اذا قلنا ان الفلسفة الطبيعية عطية من الله نقول الحق ولا أحد يعارضنا، ولكننا بهذا لا نرفع الاتهام عن الذين استعملوها بشكل رديء وأحدروها الى استهداف غاية تضاد الطبيعة. بل اعلمْ اننا نجعل الحكم عليهم أثقل لانهم استعملوا ما أعطاهم الله بصورة لا ترضي الله. من جهة أخرى ان الذكاء الشيطاني الذي خلقه الله يمتلك بالطبيعة مقدرة التفكير، ولكننا لن نقول ان عمله صادر عن الله، وان كانت مقدرته للعمل صادرة عن الله : فنستطيع اذاً أن نقول بالصواب ان عقله هو على الأصح انحراف عن العقل. ان ذكاء فلاسفة الخارج هو ايضاً عطية الهية بالقدر الذي يمتلك فيه طبيعياً حكمة عاقلة، ولكنه قد انحرف بمكايد الشرير الذي حوّله الى حكمة طائشة، سيئة، حمقاء، ما دامت تدافع عن مثل هذه التعاليم. ولكن قد يقولون لنا ايضاً ان الشياطين يمتلكون رغبة ومعرفة ليستا سيئتين كلياً ما داموا يشاؤون أن يوجدوا ويعيشوا ويفكروا. الجواب الصائب الذي سيسمعونه منا بادىء الامر هو أن : لا يحق لهم أن يغتاظوا منا اذا قلنا مع أخي الرب ان حكمة الهلّينيين «شيطانية» (يع ٣ : ١٥) بالقدر الذي تولّد فيه الخصام وتكاد تحوي كل التعاليم الرديئة، بالقدر الذي حادت فيه عن غايتها التي هي معرفة الله. ذلك لاننا نعترف بأنها حتى في هذه الحال سوف تشترك في الصلاح من خلال صدى بعيد وغير واضح. ثم فلنذكّر بأن ليس من



شيء رديئاً بكونه ما هو، بل بحياده عن العمل الخاص واللائق به وعن الغاية المرسومة لهذا العمل.

ان معرفة الخلائق معرفة حقيقية تقود الى الله

٢٠ ـ فماذا يجب أن يكون عمل للذين يبحثون عن حكمة الله في الخلائقِ وهدفهم ؟ أليس اقتناء الحقيقة وتمجيد الخالق ؟ هذا بديهي عند الجميع. لكن معرفة فلاسفة الخارج قد حادت عن كليهما. هل في هذه المعرفة ما ينفعنا ؟ بالتأكيد. لان المواد الناتجة عن تقشير لحم الافاعي نفسها لها فعل علاجي كبير. اذ يعتقد الاطباء انه ليس من ترياق افضل وانفع من الترياق الذي يسحب منها. وعندما يصنعون سموماً بقصد الخدعة يستعملون الاطعمة الاكثر حلاوة والقادرة على اخفاء التحضير الخبيث. فإن هناك اذاً ما ينفع عند الفلاسفة الدنيويين على منوال مزيج من العسل وسم الشوكران. ولكن يخشى كثيراً أن يتناول الذين يريدون فصل العسل عن المزيج حثالة قتّالة. واذا دققت في الامر ترى أن هذا هو مصدر كل الهرطقات أو معظمها. فهذا أمر «عارفي الصورة» (iconognostes) الذين يزعمون أن الانسان يتقبّل صورة الله بالمعرفة وان هذه المعرفة تجعل نفسه مماثلة لله. لانه كما قيل لقايين «ان أحسنت التقديم ولم تحسن التقسيم . . . (ألا تخطأ)» ؟ (تك ٤ : ٧ الترجمة السبعينية). ولكن القليلين يحسنون التقسيم : الذين «يحسنون التقسيم» هم فقط الذين تدربت حواس نفسهم على تمييز الخير والشر. فما حاجتنا الى التعرض باطلاً لهذه المخاطر في حين يمكن معاينة حكمة الله في الخلائق ليس فقط من دون خطر بل أيضاً بمنفعة ؟ ان السيرة التي يحررّها الرجاء بالله من كل همّ تدفع النفس طبيعياً الى فهم خلائقِ الله : وعندها تنذهل اعجاباً وتجتهد فتعمّق مفهومها وتثابر على تمجيد الخالق، وبهذه المعجزة ترتقي الى ما هو أسمى. وبحسب القديس اسحق «تصادف كنوزاً لا ينطق بها» (العظة ٧٢)، واذ تستخدم الصلاة كقفل فهي تدخل بها الى تلك الاسرار التي «لم ترها عين ولا سمعت بها

أذن ولم تخطر على قلب بشر» (١ كو ٢ : ٩)، والتي يعلنها الروح القدس وحده لمن هم أهل لها كما يقول بولس.

الاحتياطات الواجب اتخاذها

٢١ - هل ترى الطريق الاقصر، المفيد جداً والخالي من الخطر، الذي يقود الى تلك الكنوز الفائقة الطبيعة والسماوية ؟ في الحكمة الدنيوية عليك بالعكس أن تقتل الأفعى اولاً بعد التغلّب على الكبرياء الذي يأتيك من هذه الحكمة. ويا لها من صعوبة ! فقد قيل : «لا جامع بين غطرسة الفلسفة والاتضاع». وبعد تغلّبك عليها يقتضي أن تفصل الرأس والذنب وترميهما لانهما رديئان للغاية قطعاً : أعني الاعتقاد الخاطىء كل الخطأ حول المعقولات الالهية والاصلية والحكايات الاسطورية عن الخلائق. أما ما بينهما أي الابحاث المتعلقة بالطبيعة فعليك أن تفصلها عن المفاهيم المؤذية بواسطة ملكة الفحص والملاحظة التي تمتلكها نفسك، وذلك كما يطهّر صانعو المخدرات لحوم الأفاعي بالنار والماء. ولكن ان فعلت كل هذا واستعملت حسناً ما فصلته حسناً فكم يلزمك من العناء وكم من الحصافة ! ولكن اذا أحسنت استعمال هذا الجزء من الحكمة الدنيوية المقشور جيداً فلا اعتراض على ذلك، لانه عليها بالطبيعة أن تصير أداة للخير. إلا أنه حتى في هذه الحال لا يمكن شرعاً أن تسمّى عطية من الله وخيراً روحياً؛ لانها تمتّ الى نظام الطبيعة وليست هي مرسلة من فوق. ولذا بولس الحكيم في الامور الالهية يسمّيها «جسدية» (٢ كو ١ : ١٢) فيقول : «أنظروا كيف أنه بيننا نحن المدعوين ليس كثير من الحكماء حسب الجسد» (١ كو ١ : ٢٦). مع أنه مَن بوسعه أن يستخدم هذه الحكمة أفضل استخدام ان لم يكن اولئك الذين يسمّيهم بولس حكماء «الخارج» (أنظر ١ تي ٣ : ٧) ؟ رغم أنه، اذ يقصد هذه الحكمة، يسمّيهم حكماء «حسب الجسد». وذلك عن حق !



المسيح : فلسفتنا الوحيدة

٢٢ ـ فإنه كما أن لذّة الزواج الشرعي في سبيل الإنجاب لا يمكن إطلاقاً أن تسمّى هبة إلهية من الله لانها جسدية، هبة الطبيعة لا هبة النعمة، وان كان الله قد خلق الطبيعة، كذلك فإن المعرفة الناتجة عن الثقافة الدنيوية وان استخدمت حسناً هي هبة الطبيعة لا هبة النعمة. فالله يعطيها بالطبيعة للجميع دون استثناء ونحن نستطيع تنميتها بالتدريب. وعدم نوال احد اياها بدون تعب وتدريب برهان جلّي على أنها هبة طبيعية لا روحية. فحكمتنا نحن الإلهية (théosophie) هي هبة من الله لا هبة طبيعية، فإذا تقبّلها من فوق صيّادون بسيطون جعلتهم ابناء الرعد يدوّي كلامهم الى أقاصي المسكونة على حد قول غريغوريوس اللاهوتي؛ واذا تقبّلها عشّارون جعلت منهم جوّالين طالبين للنفوس. أما المضطهدون الغيورون فإذا تقبّلوها تغيّروا؛ فشاول قد أصبح بولس (أع ١٣ : ٩) وارتقى الى «السماء الثالثة» «وسمع كلمات لا ينطق بها» (٢ كو ١٢ : ٢ ـ ٤). وبها نستطيع نحن ايضاً أن نصير مطابقين لصورة الله ونبقى كذلك حتى الممات. أما الحكمة الطبيعية فيقال ان آدم كان يقتنيها بوفرة أكثر من جميع ذريته، مع أنه أول من لم يحافظ على مطابقته للصورة. ومن جهة أخرى فإن الفلسفة الدنيوية كانت في خدمة ذلك الاتصال بالله قبل مجيء من أعاد النفس الى جمالها القديم : فلماذا لم تجددنا قبل المسيح ؟ لماذا احتجنا ـ سواء من كانوا يقتنونها أو الباقون ـ لا الى معلم فلسفة أو فن يزول مع هذا الدهر، ولذا يقال له «من هذا الدهر» (١ كو ٢ : ٦)، بل الى «من يرفع خطيئة العالم» (أش ٥٨ : ٧ و يو ١ : ٢٩) ويهب حكمة حقيقية وأبدية، وان كانت ليس فقط تظهر «كجهالة» (١ كو ١ : ١٨) للحكماء الزائلين الفاسدين، بل تجعل بغيابها جهلاء اغبياء حقيقةً الذين لا يلصقون ذهنهم بها ؟ ألا ترى بوضوح أن ليست دراسة العلم الدنيوي هي التي تأتي بالخلاص وتطهر ملكة المعرفة في النفس وتجعلها مماثلة للنموذج المثالي الالهي ؟ سأختم اذا بخاتمة موافقة لما قلته بصددها. اذا اتجه امرؤ الى

فرائض الناموس للبحث عن التنقية فلن ينفعه المسيح شيئاً (رغم أن هذه الفرائض قد رسمها الله قديماً بجلاء)، كما لن ينفعه شيئاً اقتناء المعارف الدنيوية. وبالاولى اذا اتجه امرؤ نحو الفلسفة المرفوضة التي لقوم الخارج ليحصل بها على تنقية نفسه فلن يفيده المسيح شيئاً. انه بولس، فم المسيح، يتكلم هنا ويدلي لنا بشهادته.

شهادات آبائية

٢٣ ـ هذا هو يا أخي ما ينبغي ان تقوله للذين يعظّمون الحكمة الدنيوية اكثر من الواجب. ومن جهة ثانية أظهر لهم برجوعك الى المقاطع التي نسخناها فيما يلي كم كانت تبدو تافهة وحقيرة لآبائنا القدّيسين وخاصة للذين خبروها.

من أقوال أسقف نيصص في كتابه «تأملٌ في تكوين الجسم» :

«هذه هي شرعة الاغنام الروحية : عدم الاحتياج ابداً الى الصوت الذي يدوّي خارج الكنيسة، وكما يقول الرب عدم الاصغاء الى «صوت الغرباء» (يو ١٠ : ٥) (De opif ٣٠ P.G. ٤٤,٢٤٠ D).

كذلك من كتابه «الى افباتريوس»

«ان تحمّسك للآداب الدنيوية يثبت لنا عدم اهتمامك البتة بالعلوم الالهية» (الرسالة ١١ C ١٠٤١، P.G. ٤٦).

من أقوال باسيليوس الكبير في «التعليق على المزمور السابع» :

«لقد عثرنا على معنيينْ لكلمة «حقيقة» : الاول يعني ادراك الطرق التي تقود الى الحياة السعيدة، والآخر المعرفة السليمة لاحدى ظاهرات الطبيعة. الحقيقة الاولى تسهم في خلاصنا: انها حاضرة في قلب الانسان الكامل الذي ينقلها الى قريبه دون تحريفها. اما الارض والبحر والنجوم وحركاتها وسرعتها فإن كنا لا نعرف الحقيقة الخاصة بها فإن هذا لا يمنعنا مطلقاً من الإقبال على الغبطة الموعود بها» (التعليق على المزمور ١٤ BC ٢٩،٢٥٦ .P.G).



من أقوال ديونيسيوس العظيم في الباب الاول من كتابه «اليرارخية الكنسية» :

«ان التمثّل بالله **والاتحاد** به حسب تعليم الاسفار الالهية يتمّان فقط بالمحبة وممارسة الوصايا الكلية **الوقار**» (P.G. ٣,٣٩٢ A ٢).

من أقوال الذهبي الفم في «التعليق على انجيل متّى الشريف» :

«إن ما لم يستطع حكماء الخارج قديماً أن يتصوّروه حتى في الحلم قد بشّرنا به الصيّادون الأمّيون بملء اليقين. لقد غادروا الارض فيتكلمون عن كل ما في السماء، يأتوننا بحياة جديدة وكينونة جديدة، بحرية جديدة وعبودية جديدة وعالم جديد، أي بكل شيء مغاير، لا على طريقة أفلاطون وزينون وجميع الذين وضعوا قوانين. ان شخصية هؤلاء نفسها اظهرت لنا أن روحاً شريراً وشيطاناً شرساً يحارب طبيعتنا قد علّم نفوسهم. أما الصيّادون فهم يلقّنوننا عن الله ما لم ينجح اي فيلسوف قط في استيعابه. ولذا فإن معارف هؤلاء الفلاسفة قد بادت واضمحلّت بحقٍ لانها تعاليم شياطين. لقد اضمحلّت في الازدراء، فاقدة القيمة اكثر من بيوت العنكبوت، أو بالاحرى كموضوع سخرية، وقحةً، ملؤها الظلمات والتفاهة. أما تعاليمنا نحن فليست من هذا النوع».

من أقوال القديس غريغوريوس اللاهوتي :

«الحكمة الاولى سيرة ممدوحة قد طهّرها الله؛ يقوم بتطهيرها من هو كثير النقاوة وكثير النور، الذي لا يتطلب منا سوى ذبيحة واحدة : أن نتنقّى. الحكمة الأولى أن نزدري حكمة الأقوال والدقائق اللفظية والمتناقضات الخادعة غير المجدية. الحكمة التي أقرّظها أنا وأبحث عنها هي التي ضبط بها الكون كله صيّادون في شباك الانجيل، بأقوالهم الكاملة والوجيزة، بعد ان انتصروا على «الحكمة الملغاة» (العظة ١٦ : ٢ P.G. ٣٥,٩٣٦ BC).

من أقوال القديس كيرللس في تعليقه على المزمور التاسع :

«أن الذين مارسوا هذه الحكمة الدنيوية، الشيطانية والبهيمية،يتباهون بها ويلقون في النار ضعفاء العقل فيصيّرونهم أبناء جهنم. انهم ينصرون النفاق. يجمّلون كيدهم بطلاقة لسانهم فينجحون في خداع قوم كثيرين يؤخذون بنصائح هؤلاء الدّجالين كوقوعهم في شباك، لان نصائحهم فخاخ ورباق لعاديمي المعرفة».

من أقوال أسقف نيصص في تعليقه على سفر الجامعة :

«أنظر برهان «الجامعة» القياسي ! يقول انه «في كثرة الحكمة كثرة العلم، . ومن ازداد علماً ازداد ألماً» (الجا ١ : ١٨). هكذا فإن استيعاب العلوم الكثيرة وغير المجدية التي للذين من الخارج، الحكمة والمعرفة البشريّتين الاكثر رفعة، المكتسبة بالاسهار والآلام؛ ليس فقط لا تزوّد من بذلوا جهداً كبيراً في سبيلها بأي شيء ضروري ولا نافع، ولا بأي شيء يؤول الى الحياة الابدية، بل يسبب بالعكس آلاماً أعظم. فينبغي بالتالي أن نودّع كل ذلك ونسهر في الترتيل والصلوات والتضرعات الى خالقنا والهنا وسيّدنا، ونتمسك بها بشدة ونكرّس لها وقتنا، وبمثل هذه التمارين نرفع قلبنا وذهننا الى علو الجلال الالهي غير المدرك، ونثبّت نظرنا الى جمال شمس المجد، ونستنير نحن البشر، من الداخل والخارج، بالمساهمات والمشاركات الناجمة عنها ونستسلم للمجد الذي لا ينطق به بالقدر الذي يمكن فيه معاينته وتصوره، ونمتلىء من الفرح الالهي الذي لا يعبّر عنه، حتى لا يحكم علينا سريعاً مع المدرسة الباطلة من جرّاء اهتماماتنا العادمة الجدوى».

سؤال ثان

ينتقدون روحانية الهدوئيين فهل هي مستوجبة الذم ؟

أحسنت، يا أبي، بإيرادك هذه الاستشهادات في جوابك على سؤالي. حين كنت أسمعك تبدّد شكوكي كنت أعجب لبداهة الحقيقة. ولكن الفكرة التالية كانت تتسرّب الى ذهني : ما دام «كل كلام يعارضه كلام آخر»، حسب قولك انت، أولا يمكن معارضة أقوالك ايضاً ؟ ولكني اعرف ان شهادة الأفعال لا يعارضها شيء، وقد سمعت القديسين يقولون ما تردده انت، ولذا لا أعود اخشى شيئاً من هذا القبيل لأن من لا يقنعه القديسون كيف يكون جديراً بالتصديق ؟ كيف لا يرذله إله القديسين ؟ لانه هو قال للرسل وبدورهم قالوه للقديسين من بعدهم : «من رذلكم فقد رذلني» (لو ١٠ : ١٦). أي انه يرذل الحقيقة عينها. فكيف يمكن لمن يرذل الحقيقة ان يلقى تأييد الباحثين عن الحقيقة ؟ ارجوك يا أبتِ أن تستمع الى سردي لكل من الحجج الاخرى التي سمعت أولئك يعرضونها، هم الذين يقضون حياتهم بتعاطي الثقافة الهلّينية، وارجوك ايضاً ان تقول لي ما تراه حسناً في هذا الشأن وتضيف آراء القديسين بصدده. فهم يقولون اننا مخطئون في حبس ذهننا داخل جسدنا، لأنه علينا بالعكس إخراجه خارج الجسد مهما كلّف الامر، وهم يسيئون الى البعض منا ويحرّرون مؤلفاتهم ضدّهم، بحجة ان ذوينا يحثّون المبتدئين على توجيه نظرهم الى انفسهم وعلى إدخال ذهنهم فيهم عن طريق التنشّق. يقولون ان الذهن غير منفصل عن النفس، فكيف لنا بالتالي ان نُدخل فينا ما هو غير منفصل عن النفس بل متضمّن فيها ؟ ويضيفون ان البعض منا يتكلمون عن ادخال النعمة الالهية فيهم عن طريق الأنف. ولكني اعرف انهم يفترون علينا لاني لم اسمع شيئاً من هذا في اوساطنا. واستنتج ان سلوكهم هو على هذا الخداع في مجالات اخرى. لان من يختلق اتهامات كاذبة يستطيع ايضاً ان يشوه الحقيقة. ولكن انت، يا أبي، علّمني : لماذا نبذل جهدنا في إدخال ذهننا الى داخلنا، ولماذا لا نحسب انه من غير الصواب حبسه في جسدنا ؟

لـــــــــــــــــه نفسه

البحث الثاني في السلسلة الأولى
دفـاعاً عن القديسين الهدوئيين

في ان الذين اختاروا ان يركّزوا انتباههم على أنفسهم في الهدوء لا يخطئون في محاولتهم حفظ ذهنهم داخل جسدهم.



جواب ثانٍ

الجسد ليس سيّئاً بحد ذاته

١ ـ يا أخي، ألا تسمع الرسول يقول : «إن أجسادنا هي هيكل الروح القدس الذي فينا»(ا كو ٦ : ١٩)، وايضاً : «نحن بيت الله» (أنظر عب ٣ : ٦) ؟ والله يقول : « اني سأسكن فيهم وأسير فيما بينهم واكون لهم إلهاً» (٢ كو ٦ : ١٦). فإن كنا ذوي فهم لماذا ننزعج من ان الذهن يسكن في ما يصبح طبيعياً مسكن الله ؟ وكيف أمكن لله منذ البدء أن يُسكن الذهن في الجسد ؟ هل أخطأ هو أيضاً ؟ يليق بالهراطقة، يا أخي، أن يتكلموا هكذا، أولئك الذين يقولون ان الجسد شرير وإنه من صنع الشرير. أما نحن فنعتقد أن الروح الشرير هو في الأفكار الجسدية، وانه ليس من روح شرير في الجسد، ما دام الجسد ليس شيئاً سيّئاً. ولذا جميع الذين يلزمون الله طيلة حياتهم يصرخون اليه مع داود : «اليك عطشت نفسي كم من مرة تاق اليك جسدي» (مز ٤٢ : ١). وايضاً «قلبي وجسدي ابتهجا بالإله الحي» (مز ٨٣ : ٢). ومع أشعيا : «ترنّ احشائي كالكنّارة وقلبي كحائط من نحاس» (أنظر أشعيا ١٦ : ١١)، وأيضاً «من جرّاء خوفك يا رب ولدنا في أحشائنا روح خلاصك» (أشعيا ٢٦ : ١٨). نحن نعتمد على هذا الروح ولن نسقط. انما الذين ينطقون بكلام هذا الدهر يسقطون، الذين يقولون إن الأقوال والحياة السماوية هي كالتي من الأرض. فإن كان الرسول يدعو الجسد ايضاً «موتاً» اذ يقول «من ينقذني من جسد هذا الموت» (رو ٧ : ٢٤) فلأن للفكرة المادية والجسدية شكل الجسد فعلاً. إنه يقارنها بالفكرة الروحية والالهية ويدعوها عن صواب «جسداً». ليس فقط «جسداً»

بل «موت الجسد». وهو، قبل بضعة آيات، يظهر بصورة أجلى انه لا يعيّر الجسد، بل الرغبة الشريرة التي نتجت فيما بعد عن السقوط، فيقول : «أنا مبيع تحت الخطيئة» (رو ٧ : ١٤). ولكن المبيع ليس عبداً بالطبيعة. وأيضاً : «إني أعلم أن الخير لا يسكن فيّ، أي في جسدي» (رو ٧ : ١٨). إنه لا يقول إن الجسد هو الشر بل ما يسكن فيه. ليس الشر في أن الروح يسكن في جسدنا، بل في أن «ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس روحي» (رو ٧:٢٣).

يستطيع الكيان البشري بجملته اقتبال النعمة

٢ - ولذا نثور ضد «ناموس الخطيئة» هذا (رو ٨ : ٢)، فنخرجه من الجسد وندخل عوضه سلطان الروح. وبهذا السلطان نعيّن لكل قوة من قوى النفس ولكل عضو من أعضاء الجسد ناموسه اللا ئق به : نعيّن للحواس موضوع عملها وحدوده، وعمل الناموس هذا يدعى «الإمساك». ونمدّ جزء النفس الانفعالي بطريقة الوجود الفضلى التي تسمّى «المحبة». ونحسّن ايضاً الجزء العقلاني بنبذ كل ما يمنع الذهن من الارتقاء نحو الله : ونسمّي هذا الجزء من الناموس «اليقظة». فمن طهّر جسده بالإمساك وجعل مشيئاته ورغباته فاضلة بمحبته لله، وقدّم له ذهناً قد تنقى بالصلاة، هذا يقتني ويعاين في نفسه النعمة الموعود بها لأنقياء القلوب. وحينذاك يمكنه القول مع بولس : «إن الله الذي أمر أن يشرق من ظلمة نور هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه المسيح يسوع» (٢ كو ٤ : ٦). ولكنه يقول : «ولنا هذا الكنز في آنية خزفية» (٢ كو ٤ : ٧)، وبالتالي نحن الذين، في آنية خزفية، أي في أجسادنا، نحمل نور الآب في شخص يسوع المسيح لمعرفة مجد الروح القدس، هل نخطىء إلى أصالة الروح اذا ما أبقينا ذهننا داخل الجسد ؟ أي إنسان ذو ذكاء خالٍ من النعمة الإلهية - لن أقول أيّ إنسان روحي - يمكن وصول الأمر به الى التكلّم هكذا ؟



القلب مركز الذهن

٣ ـ النفس واحدة ولكنها ذات قوى عديدة. انها تستخدم الجسد المنسجم معها طبيعياً كمثل أداة. ولكن قوة النفس التي ندعوها «ذهناً» أية أداة تستخدم في نشاطها ؟ لم يفترض أحد يوماً أن مركز الذهن الأظافر أو الجفون أو الأنف أو الشفتان، انما يجمع الناس على وضعه في داخلنا. ولكن البعض ترددوا في تحديد العضو الذي يستعمله بصورة رئيسية في احشائنا. فمنهم من يضع الذهن في الدماغ كما في نوع من قلعة. آخرون يعتبرون أن مقامه هو وسط القلب عينه وما تحرر في القلب من النفثة الحيوانية. ونحن نعرف بالخبرة الصحيحة أنه ليس في داخلنا كما في إناء اذ لا جسد له، ولا هو في الخارج لانه مرتبط بنا، بل هو في القلب كما في عضوه. اننا لا نستمده من انسان بل من خالق الانسان نفسه، الذي حين يبيّن ان « ليس ما يدخل الفم بل ما يخرج من الفم يدنّس الانسان» (متى ١٥ : ١١) يقول : « لأنه من القلب تخرج الأفكار الشريرة» (متى ١٥ : ١٩). ومكاريوس الكبير لا يتكلم بوجه آخر إذ يقول : «القلب يدير كل الجسم، وحين تستلم النعمة القلب تملك على كل الأفكار وعلى كل الأعضاء لأنه هناك الذهن وكل أفكار النفس» (العظة ١٥ :٢٠ B P.G. ٣٤,٥٨٩) فقلبنا اذاً هو مركز الذهن وأول عضو جسدي عاقل. وبالتالي عندما نحاول مراقبة عقلنا وتقويمه بيقظة ودقة، فبماذا نراقبه يا ترى ان كنا لا نجمّع ذهننا المشتت في الخارج بالأحاسيس ولا نعيده الى الداخل، الى ذلك القلب عينه الذي هو مركز الأفكار؟ لذا يتابع مكاريوس المدعو الطوباوي عن حق ويقول مباشرة : «فإلى هنا يجب اذاً ان نتطلّع لمعرفة ما إذا كانت النعمة قد حفرت فيه نواميس الروح». أين «هنا» ؟ في العضو المدير، عرش النعمة، حيث الذهن وكل أفكار النفس ، أعني في القلب. هل ترى كم هو ضروري لمن عزموا على إلزام أنفسهم في الهدوء، أن يعيدوا ذهنهم الى

الجسد ويحبسوه فيه، لا سيما في ذلك الجسد القائم في أعماق الجسد والذي نسمّيه «القلب» ؟

الرجوع الى الذات

٤ ـ اذا كان «كل مجد بنت الملك من الداخل» (مز ٤٤ : ١٤ في الترجمة السبعينية) فلِمَ نبحث عنه في الخارج ؟ واذا كان «الله قد أرسل في قلوبنا الروح الذي يصرخ يا أبّا الآب» (غلا ٤ : ٦) فكيف لا نصلّينَّ نحن أيضاً مع الروح في قلوبنا ؟ واذا كان «ملكوت السموات في داخلنا» (أنظر لو ١٧ : ٢٦) بحسب سيد الأنبياء والرسل كيف لا يقصي نفسه عن ملكوت السموات من يجتهد أن يُخرج ذهنه من داخله ؟ «إن القلب المستقيم يفتّش عن الحسّ» يقول سليمان (أمثال ٢٧ : ٢١)، ذلك الحسّ الذي يدعوه في مكان آخر «عقلياً وإلهياً» والذي يسعى جميع الآباء لاقتنائه بقولهم : «الذهن الذكي متأكد من اقتنائه حساً عقلياً، فلا نتوقفن عن البحث عن هذا الحسّ فينا وخارج أنفسنا» (يوحنا السلّمي، المقالة ٢٦). هل ترى انه اذا كنا نريد مقاومة الخطيئة واقتناء الفضيلة، والحظوة بجزاء الجهاد لاقتناء الفضيلة، أو بالحري بالحسّ الذكي عربون ذلك الجزاء، علينا إرجاع الذهن الى داخل الجسد وداخل أنفسنا ؟ وان إخراج الذهن، لا خارج الفكر الجسدي، بل خارج الجسد نفسه من أجل ان يعاين فيه رؤىً معقولةً هو بالعكس أعظم الضلالات الهلّلينية وأصل كل الهرطقات ومصدرها، وابتداعٌ شيطاني، وتعليم يولّد الغباء ناجم عن جسارة بلهاء. ولذا فالذين يتكلمون بإلهام الشيطان يجدون انفسهم خارج ذواتهم، ولا يفقهون حتى ما يقولون. اما نحن فنردّ الذهن ليس فقط الى داخل الجسد والقلب بل الى داخل ذاته.



حركة الذهن الدائرية

٥ ـ فليتكلم اذاً الذين يقولون بأن الذهن غير منفصل عن النفس بل هو داخلها ويسألون كيف نستطيع ان نردّه الى الداخل ! يبدو انهم يجهلون أن جوهر الذهن شيء وعمله شيء آخر. أو بالأحرى يعرفون ذلك جيّداً ولكنهم يصطفّون طوعاً مع الماكرين، متلاعبين بكلام ذي وجهين. «لأنهم لا يقبلون بساطة التعليم الروحي، هم الذين شحذهم علم الجدل لأجل المناقضة. انهم ـ يقول باسيليوس الكبير ـ يقوّضون قوة الحق بتناقضات المعرفة الكاذبة (١ تي ٦ : ٢٠) بواسطة حجج مقنعة مستمدة من السفسطة» (العظة ١٢ في امثال ٧ A P.G. ٣١,٤٠١) . اذ لا بد ان يكون على هذه الصورة من يحسبون انفسهم أهلاً للتعليم والحكم في الروحانيات، دون أن يكونوا روحانيين ! أفلم يَفُتْهم ان الذهن ليس كالعين التي تبصر الأشياء المنظورة الأخرى ولكنها لا تبصر ذاتها ؟ أمّا الذهن فيعمل من جهة طبقاً لوظيفته الخاصة بالنظر الخارجي (وهذا ما يسميّه ديونيسوس الكبير حركة الذهن ذات «الخط المستقيم» (في الأسماء الإلهية ٤ : ٩ P.G ٣,٧٠ DB) ، ومن جهة أخرى يعود الى ذاته ويعمل في ذاته عندما يعاين ذاته : هذا ما يسمّيه ديونيسيوس الحركة «الدائرية» . هذا هو عمل الذهن المميز والخاص به أكثر من أي شيء آخر، والذي يتّفق له به أن يتخطى ذاته ليتّحد بالله. لأنه قيل : «الذهن الذي لا يتشتت خارجاً (أترى انه يخرج خارجاً ؟ وإذا كان يخرج فعليه أن يرجع ويدخل، ولذا يتابع ويقول) يلج الى ذاته ويرتقي نحو الله بدافع من ذاته» (رسالة باسيليوس الثانية الى غريغوريوس النزينزي A ٣٢,٢٢٨ ، P.G) كما في طريق منزّه عن الخطأ. وديونيسيوس هذا، الذي يعاين المعقولات معاينة لا تقبل الخطأ، يقول هو أيضاً ان حركة الذهن هذه منزّهة عن الخطأ (في الأسماء الإلهية).

لقد لبس المسيح المادة

٦ ـ إن أبا الضلال يروم دوماً أن يتخلى الإنسان عن حركة الذهن هذه وأن تجتذبه الضلالات الى قصده هو. إنه لم يجد الى اليوم، بقدر ما نعلم، معاوناً يجهد نفسه في جلب الناس الى هذا القصد بأقوال حسنة. ولكن يبدو أنه وجد اليوم شركاء، اذا صحّ، كما تقول، أن هناك أناساً بلغ بهم الأمر الى كتابة أبحاث لهذه الغاية، ويحاولون أن يقنعوا الناس ـ حتى المنتمين منهم الى السيرة الهدوئية السامية ـ أنه من الأفضل حفظ الذهن أثناء الصلاة خارج الجسد. إنهم لا يحترمون حتى قول يوحنا الواضح والحاسم، الذي ابتنى لنا «السلّم» المصعدة الى السماء: «إن الهادىء هو الذي يبذل جهده ليحصر اللاجسدي في حدود جسده» (السلّم ٢٧). وآباؤنا الروحيون نقلوا الينا هذا التعليم نفسه وقد فعلوا ذلك عن حق. لأنه إن لم يحصره الهادىء داخل جسده فكيف له أن يُدخل الى داخل ذاته الذي لبس الجسد والذي يتغلّل في كل مادة منتظمة، كهيئة طبيعية؟ إن جانب هذه المادة الخارجي وتجزّأها لا يتفقان مع جوهر الذهن إلاّ فقط حين تبدأ المادة بأن تحيا، بعد اتخاذها هيئة حياة موافقة للاتحاد (بالمسيح).

طريقة روحية للمبتدئين

٧ ـ أنت ترى يا أخي: فقد أوضح يوحنا أنه يكفي تناول الموضوع بطريقة بشرية، حتى لا روحية، لنتبيّن أنه من الضرورة المطلقة ردَ الذهن الى داخل الجسد أو إبقاؤه فيه، إذا ما عزم المرء على امتلاك ذاته حقيقة ليصبح راهباً يستحق اسمه، بمقتضى الانسان الداخلي. من جهة أخرى ليس في غير محلّه تعليم المبتدئين خاصة أن ينظروا الى أنفسهم ويعيدوا الذهن الى داخلهم عن طريق التنفّس. فإن أي إنسان عاقل لن يمنع احداً من اللجوء إلى بعض



الوسائل ليعيد الى داخله ذهنه الذي لم يبلغ بعد الى معاينة ذاته. فالذين يباشرون هذا الجهاد لا يكادون يجمعون ذهنهم حتى يروه يهرب باستمرار. فعليهم بالتالي إرجاعه إليهم أيضاً باستمرار. إنهم، بسبب عدم خبرتهم، لا يدركون أنه ليس في الدنيا أصعب من معاينة الذهن وأكثر تحركاً منه. ولذا ينصحهم البعض أن يراقبوا حركة النفث المستمرة ويحبسوها قليلاً، حتى يُحبس الذهن أيضاً عن طريق مراقبة التنفس، الى أن يكونوا قد تقدموا بعون الله، وتوصلوا الى منع ذهنهم عن كل ما حوله وطهّروه، واستطاعوا أن يعيدوه حقيقة الى «تجمّع موحّد» (ديونيسيوس في الأسماء الإلهية ٩,٤ A P.G.٣,٧٠٥) . ويمكن الملاحظة أن هذا إنما هو نتيجة تلقائية لانتباه الذهن، لأن حركة التنفس المستمرة تهدأ أثناء كل تفكير شديد، خاصة عند المقيمين في السكينة جسدياً وذهنياً. فهؤلاء يمارسون راحة السبت الروحية فيوقفون كل نشاط شخصي قدر المستطاع. إنهم يجرّدون قوى النفس الإدراكية من كل أفعالها المتقلّبة والمتحركة والمتنوعة، ومن كل إدراك للمحسوسات، وبصورة عامة من كل فعل جسدي يرتبط بنا. أما الأفعال التي لا تخضع لنا كلياً كالتنفّس فيتجردون منها قدر المستطاع.

غاية هذه الطريقة

٨ ـ كل هذا يحصل بدون جهد عند الذين تقدموا في سيرة الهدوء وبدون أن يفكروا به، لأن ولوج النفس الى داخلها ولوجاً كاملاً يُحدثه بالضرورة وتلقائياً. أما عند المبتدئين فلا شيء من هذا يحدث بدون تعب. فكما أن الصبر ثمر من ثمار المحبة (لأن «المحبة تصبر على كل شيء » ١ كو ١٣ : ٧) وقد علّمونا أن نمارس الصبر من كل قوتنا لنبلغ المحبة، هكذا هو الأمر هنا. ولكن لماذا التمادي في هذا البحث ؟ فإن جميع الذين اكتسبوا الخبرة في هذا

المجـال لا يسعـهم إلاّ أن يضحكوا حين يناقضونهم عن عدم خبـرة، لأنه ليس الكلام معلّمـهم بل الجهد والخبرة الناجمة عن الجـهد الذي يبذلونه. هذا الجـهد هو الذي يحمل الثمار النافعة ويدحض أقوال المجـادلين والمتّهمين العقيـمة.
إن أحد كبار معلّمي الكنيسة يقول : «منذ المعصية يتأثرالإنسان الداخلي طبيعياً بالهيئـة الخـارجيـة» (مكاريوس العظة ١٦ : ٧ والسلمي ٢٨ : ٢٣ و ٢٥ : ٥٣).
فمن يسعى لإرجاع ذهنه الى ذاته ليدفعه لا للحركة ذات الخط المستقيم بل للحركـة الدائريـة التي لا تخطىء، عوض أن ينزّه عينه هنا وهناك، كيف لا ينتفع كثيراً بتثبيته على صدره أو على سرّته كما على مرتكز ؟ لأنه ليس فقط يتجمّع هكذا خـارجيـاً على ذاته قدر استطاعته طبقاً للحركة الداخليـة التي يلتمسها لذهنه، بل أيضاً، باتخاذ جسده هذا الوضع، سوف يردّ الى داخل القلب قوة الذهن التي تتسرّب الى الخارج عن طريق النظر. وإذا كانت قوة البهيمـة المعقولة تقيم في وسط البطن، إذ ان ناموس الخطيئة يسود هناك ويمدّه بالمرعى، لِمَ لا نضع فيه ناموس «الذهن الذي يحارب» (أنظر رو ٧ : ٢٣) هذه السيادة مسلّحاً بالصلاة، لكي لا يعود الروح الشرير الذي اضمحل بفضل «غسل الميلاد الثاني» (تيطس ٣ : ٥)، فيقيم فيه من جديد مع سبعة أرواح شراً منه و «تصير الحالة الأخيرة أسوأ من الأولى» (لو ١١ : ٢٦) ؟

يمكن للجسد أن يتغيّر ويتجلّى

٩ ـ يقول موسى «إحترز لذاتك» (تث ١٥ : ٩)، أي لذاتك كلّك : ليس لجزء منك، مهملاً الباقي. كيف يكون ذلك ؟ بواسطة الذهن طبعاً إذ يتعذّر الإنتباه إلى كامل شخصيتنا بواسطة عضو آخر. فأقم، إذاً، هذه الحراسة على نفسك وعلى جسدك : فتحررك بسهولة من أهواء الجسد والنفس السيئة. أركن إذاً الى هذه الحراسة، الى هذا الانتباه، لا تفقد مراقبة ذاتك أو بالحري إحذر لنفسك، تيقّظ وارصد نفسك ! لأنك بذلك سوف تُخضع الجسد الثائر للذهن «فلن



يخطر في قلبك فكر غاش ابداً فيما بعد» (تث ١٥ : ٩). يقول الجامعة : «إذا ثار عليك روح المتسلّط (أي روح الأرواح الشريرة والأهواء الردئية)، فلا تترك مكانك» (الجامعة ١٠ : ٤)، أي لا تدع بدون مراقبة أي جزء من أجزاء نفسك ولا أي عضو من أعضاء جسدك. وهكذا لا تضرك الأرواح التي تهاجمك من أسفل، فتتقدم بثقة الى من «يفحص الكلى والقلوب» (مز ٧ : ١٠ و رؤ ٢ : ٢٣) فلا يفحصك، لأنك تكون قد فحصتها انت. إذ ان بولس يقول : «لو حاسبنا أنفسنا لما كنا ندان» (١ كو ١١ : ٣١). فتكتسب خبرة داود السعيدة وتتوجه الى الله قائلاً : «إن الظلمة ليست ظلمة عندك والليل يضيء كالنهار» (مز ١٣٨ : ١٢ - ١٣). فداود يقول هنا : «أنت، يا رب، لم تتبنّ كل رغبات نفسي وحسب، بل إن كان لهذه الرغبات مقرّ في جسدي فقد عاد الى مكانه الأصلي، وارتبط بك من خلاله، وارتقى اليك واتحد بك». فكما أن ممارسي الملذات الحسية الفاسدة يُذوون رغبة نفوسهم كلها في الجسد فيصبحون كلهم «جسداً» (لحماً)، وكما أن روح الله لا يمكن ان يثبت فيهم بحسب الكتاب (تك ٦ : ٤)، هكذا الذين رفعوا ذهنهم نحو الله ورقّوا نفسهم بمحبته، يلحظون جسدهم يتغيّر ويرتقي ايضاً، ويشترك في الإتحاد الإلهي، ويصبح هو أيضاً مقاماً وبيتاً لله، لأنه لا يعود مقرّاً لعداوة الله ولا يعود يمتلك رغبات منافية للروح القدس.

ان لقب «سرّيي النفوس» إفتراء (١)

١٠- ما هو، بين الجسد (chair) والذهن، المكان الأكثر ملاءمة للروح الذي يطلع علينا من أسفل ؟ أليس هو الجسد الذي ليس فيه شيء صالح، كما يقول

١) سرّيي من كلمة سرّة، اللقب Omphalopsyques من Omphaci سرة

الرسول، طالما شريعة الحياة لم تأت وتسكن فيه (أنظر رو ٨ : ٢) ؟ إذاً بحجة أولى يقتضي عدم إرخاء انتباهنا إليه. ما العمل حتى نمتلكه، حتى لا نفقده ؟ كيف لنا أن نمنع الشرير من الصعود إليه، نحن الذين لا نعرف بعد نبذ الشر روحياً بوسائل روحية، إلاّ اذا تدربنا على الإحتراز لأنفسنا بالهيئة الخارجية ؟ ولماذا ذكرتَ المبتدئين ما دام هناك قوم أكثر كمالاً قد تبنّوا هذه الهيئة أثناء الصلاة واستمالوا عطف الله ؟ بعضهم عاش بعد المسيح ولكن غيرهم سبقوا مجيئه إلينا. إن إيليا نفسه، الأكثر كمالاً بين معايني الله، وضع رأسه بين ركبتيه وجمّع ذهنه في ذاته بجهد كبير فأوقف جفافاً دام عدة سنين (أنظر ملوك الأول ١٨ : ٤٢ ـ ٤٥). في حين أنه يبدو أن القوم الذين تقول عنهم، أيها الأخ، إنهم يتكلمون هكذا يعانون من مرض الفريسيين : فهم لا يريدون ملاحظة داخل الكأس وتطهيره (أنظر متى ٢٣ : ٢٥ ولو ١١ : ٣٩) أي قلبهم، وينبذون تقاليد الآباء، فيسعون وراء التّصدّر على الجميع كمعلّمين جدد للشريعة. إنهم يرذلون هيئة الصلاة التي برّرها الرب عند العشار. وينصحون الآخرين بأن لا يتشكلوا بها في صلاتهم. فالرب يقول في الأناجيل : «لم يكن يتجرّأ على رفع عينيه الى السماء» (لو ١٨ : ١٣). والذين يوجّهون نظرهم الى داخلهم يطلبون التشبّه به، بينما يلقّبهم أولئك ب «سرّيي النفس» للافتراء جهاراً على أخصامهم. إذ مَن بين هؤلاء قال يوماً إن النفس في السرّة ؟

لماذا لا «بطنّيو النفوس» ؟

١١ ـ إن أولئك إذاً قوم يعمدون الى الافتراء جلياً. وبالاضافة الى ذلك هم يهينون علناً أناساً جديرين بالمديح وفي الوقت نفسه يدّعون تقويم الضلالات. لا يدفعهم الى الكتابة قضية السيرة الهدوئية والحقيقة، بل الغرور. لا الرغبة في الإتيان بالناس الى التيقظ، بل في إبعادهم عنه. يحاولون بكل الوسائل أن يلطّخوا سمعة الممارسة نفسها وسمعة من يتعاطونها كما يليق. متحجّجين



بالممارسات المقابلة. إن مثل هؤلاء لمستعدّون لتلقيب من قال : «إن شريعة الله في وسط بطني» (مز ١٩ : ٨) ب «بطنيّ النفس»، ومثله من هتف «يهتزّ بطني كالكنّارة وأحشائي كجدار من نحاس» (أنظر أشعيا ١٦ : ١١). قد يفترون بدون تفريق على جميع الذين يستخدمون رموزاً جسدية ليصوّروا ويعيّنوا ويتقصّوا المعقولات الإلهية والروحية. ولكن القديسين لن يتأثروا بذلك إطلاقاً : بل سيحظون بمدائح وأكاليل أكثر من ذي قبل، في حين أن أولئك سيظلّون خارج الاستار المقدسة ولن يستطيعوا أن يعاينوا حتى ظلال الحقيقة. ويُخشى كثيراً أن يجتنوا بمعرفتهم دينونة أبدية، لأنهم لم ينفصلوا عن القديسين وحسب بل هاجموهم بأقوالهم.

معلّمو الهدوئية

١٢ ـ فأنت تعرف «سيرة» سمعان اللاهوتي الحديث : إنها تكاد تكون معجزة من أولها الى آخرها. لأن الله قد مجّده بعجائب فائقة الطبيعة. تعرف ايضاً كتاباته : لو سمّيناها «كتابات حياة» لما أخطأنا أبداً . تعرف أيضاً القديس نيكيفوروس الذي قضى سنين طويلة في البرية وفي الهدوء، ثم أقام في المناطق الأكثر إقفاراً في الجبل المقدس ولم يتح لنفسه أية راحة. فقد نقل إلينا ممارسة اليقظة بعد اقتطافه إياها من سائر مؤلفات الآباء. هذان القديسان يعلمان جلياً الذين اختاروا هذه الطريقة الممارسات التي يهاجمها البعض كما تخبرنا. ولماذا الاقتصار على ذكر قديسي الماضي ؟ فإن أناساً معترفاً لهم بأنهم امتلكوا قوة الروح القدس قد شهدوا قبلنا بقليل ونقلوا الينا هذه الامور مباشرة : ذاك اللاهوتي مثلاً، «اللاهوتي» الحقيقي، المعاين أسرار الله الأكثر ثقة والذي اشتهر في أيامنا، أعني ثيولبتس «الملهم من الله» حقيقة، أسقف فيلادلفيا، بل الذي أنار العالم كله من فيلادلفيا كشمعدان.

وذاك الأثناسيوس الذي زيّن الكرسي البطريركي سنين كثيرة وقد كرّم الله مثواه. ونيلوس الذي من إيطاليا، المتشبه بنيلوس الكبير، وسليوتيس وإيليا اللذين لا ينقصان عنه بشيء، وجبرائيل وأثناسيوس اللذين استحقا موهبة التنبؤ. عنهم جميعاً أريد أن أتكلم وعن كثيرين قبلهم ومعهم وبعدهم: فهم يشجّعون ويستحثّون الذين يريدون الاحتفاظ بهذا التقليد، في حين أن معلّمي الهدوء الجدد أولئك لا يعرفون حتى ولا أثراً له ويريدون أن يؤنبونا لا بخبرتهم بل بثرثرتهم، محاولين رفض التقليد وتحريفه ونبذه دون أية فائدة لمستمعيهم. أما نحن فقد تحدّثنا شخصياً الى بعض هؤلاء القديسين، فكانوا معلّمينا. ماذا؟ هل نحسبهم لا شيء هم الذين تلقّوا تعليم الخبرة والنعمة، لنخضع للذين باشروا التعليم بدافع الكبرياء ساعين وراء منازعات كلامية؟ لن يكون هذا أبداً! فابتعد أنت عن هؤلاء، وقل لنفسك برصانة مع داود:

«باركي يا نفسي الرب، ويا جميع ما في باطني لاسمه القدوس» (مز ١٠٣: ١)! دع الآباء يقنعونك، أصغ إليهم يرشدونك الى طريقة إدخال ذهنك الى داخلك.

سؤال ثالث

ما هي العلامات الحقيقية للحضرة الإلهية ؟

اني أفهم الآن يا ابي اكثر من ذي قبل : ان المشتكين على الهدوئيين لا يمتلكون المعرفة الحاصلة من الأعمال، ويجهلون المعرفة الناجمة عن خبرة الحياة وهي المعرفة الوحيدة الاكيدة والتي لا تدحض. بل اكثر من ذلك انهم يرفضون رفضاً كلياً الاستماع الى صوت الآباء. انهم، حسب قول الرسول، «ينتفخون من الكبرياء باطلاً ويتعاطون ما لم يعاينوه بروح جسدهم» (أنظر كو ٢ : ١٨) لقد ابتعدوا عن الطريق القويم الى درجة انهم، فيما يفترون علناً على القديسين، لا يتفقون بشيء مع انفسهم. فإذ يتكلمون عن الاستنارة يعدون وهماً كل استنارة قابلة للادراك بالحواس، مع انهم يؤكدون ان كل استنارة إلهية قابلة للادراك بالحواس. ان كل الاستنارات التي حصلت في عهد الناموس قبل مجيء المسيح، عند اليهود وانبيائهم، كانت بحسب رأيهم استنارات رمزية، وهم يقولون جلياً ان الاستنارة التي حصلت في ثابور لدى تجلّي المخلّص والتي حصلت لدى انحدار الروح القدس وسائر الاستنارات المماثلة كانت قابلة للادراك بالحواس. ان المعرفة هي وحدها في رأيهم استنارة تجاوز الحواس، وبالتالي تفوق النور وهي غاية كل مشاهدة. سأروي لك هنا ملخّص ما يؤكدون انهم سمعوه لدى البعض. فأرجوك ان تعينني وتثق بأني لم اسمع ابداً شيئاً مماثلاً لدى الهدوئيين واني بالتالي لا استطيع الاقتناع بأن هؤلاء قد سمعوا مثل هذا لدى احد ذوينا. هم يدّعون انهم تظاهروا بدخول مدرسة الهدوئيين دون القبول بتعليمهم. وهكذا كتبوا ما كان معلّموهم يقولون لهم لترغيبهم وإقناعهم. فيكتبون ان هؤلاء المعلّمين كانوا يعرضون عليهم ترك الكتاب المقدس كلياً كشيء رديء والتمسك بالصلاة فقط. فالصلاة قادرة ان تطرد منهم الارواح الشريرة التي تختلط بجوهر البشر عينه بينما يلتهبون هم بشكل محسوس وينطنطون ويفرحون دون ان يلحق النفس اي تغيير ويرون انواراً حسّية، وعليهم ان يعتقدوا بأن علامة الامور الالهية بياض خفيف، وعلامة الامور الرديئة اللون الاصفر البرّاق. يكتبون اذاً ان معلّميهم يتكلمون هكذا بينما هم يعلنون ان كل هذا من الشيطان. واذا عورضوا في بعض اقوالهم اكّدوا ان هذه المعارضة انما هي علامة هوى وان الهوى بدوره يعني الضلال. وهم يرشقون اخصامهم بمعايب كثيرة، ويقلّدون كثيراً في مؤلفاتهم منعرجات الافعى وغدرها، ويبدون تلافيف عديدة، ويتحاولون كثيراً ويفسّرون اقوالهم عينها بشكل مختلف ومتناقض. انهم لا يقتنون ثبات الحقيقة وبساطتها. يقعون بسهولة في التناقض واذ يخجلون من تكذيب ضميرهم يحاولون مثل آدم اخفاء انفسهم في التعقيد واللغز والالتباس، مستخدمين اختلاف معاني الكلمات. فأرجوك يا ابت ان توضح رأينا في اقوالهم هذه.

لـــــــــــــــه ايضاً

البحث الثالث في السياق الاول
دفــاعاً عن الهدوئيين القديسين

في النور والاستنارة الإلهية، والسعادة المقدسة والكمال في المسيح



جواب ثالث

حيل الشيطان

١ ـ الرذائل مزروعة الى جانب الفضائل، بل ان الاقوال الكافرة تبدو قريبة من الاقوال التقية الى درجة انه يكفي زيادة صغيرة عليها او تنقيص بسيط منها لتحويلها الى عكسها وتغيير معناها كلياً. ولذا يكاد كل رأي خاطىء يحمل ظاهر الحقيقة ليخدع الذين لا يستطيعون ملاحظة ما اضيف او ما اهمل. هذه وسيلة خطرة يستعملها الشيطان الشرير البارع في فن الخداع. فإنه قد ابتدع حيلة مضاعفة بوضعه الكذب غير بعيد عن الحقيقة: بما ان هذه المسافة اليسيرة لا يلحظها اكثر الناس فقد يحسبون الكذب حقيقة او الحقيقة كذباً ما دامت مجاورة له. وفي الحالتين ينفصلون كلياً عن الحقيقة. ان انصار آريوس اذ تلقّنوا هذا الفن قابلوا بالايمان المحدد في مدينة نيقي (١) الايمان المحدد في نيقية، وأساؤوا الى من كان «يعلّم كلمة الحق باستقامة» (٢ تي ٢ : ١٥). لقد استعمل آريوس نفسه هذه الحيلة وكاد يشترك بالخدمة الالهية مع الذين كانوا قد طردوه امام الكنيسة. ولكن الكسندروس الكبير اكتشف الخدعة دون ان يستطيع دحضها بوضوح، فالتجأ الى الله بالصلاة وبها سلّم بحق الى موت شنيع هذا الكائن الشنيع، والمسلوب حقا بالجنون.

١) كان الاريوسيون قد استحصلوا في بلدة نيقي (تراكيا) في ١٠ تشرين الاول عام ٣٥١ من وفد مؤلف من أساقفة مستقيمي الرأي اعضاء مجمع ريميني، على التوقيع على صيغة تنافي قرارات مجمع نيقية.

خدع المشتكين

٢ ـ هذه هي الحيلة، يا اخي، التي يبدو ان المتكلمين كما ذكرت يستعملونها كثيراً. فالهدوئيون المبتدئون يُنصحون بالامتناع عن المطالعات الطويلة وبالانكباب على الصلاة ذات اللفظة الواحدة، الى ان يمتلك ذهنهم هذه الصلاة غير المنقطعة امتلاك حالةٍ خاصة به، حتى لو كان الجسد يتعاطى شغلاً آخر. ينصحهم بذلك القديس ذياذوخس (انظر المقالة ٥٩ من مئويته) وفيليمون الكبير ونيلس الغني جداً بالإلهيات ويوحنا السلمي (المقالة ٢٧) وآباء كثيرون لا يزالون احياء. ليس ان المطالعة غير نافعة وسيئة ! بإضافتهم كلمة «سيئة» جعلوا نصائح الآباء الصالحة سيئة. ومن جهة اخرى فإن جميع القديسين، كما نعلم، قد اظهروا بالعمل والقول ان الصلاة تطرد الارواح الشريرة والاهواء. وكل انسان عاقل هكذا يفكّر ويعلّم. ولكن لا احد يقول ان الارواح الشريرة تختلط مع جوهرنا. بإضافتهم هذه الزيادة الكيفية قد جعل المشار اليهم غاية مسعانا بغيضة ! اما ان القلب «يثب» وكأنه يخفق في هيام حبه للصلاح فإن باسيليوس الكبير نفسه قد قال ذلك، واثناسيوس الكبير يعدّه علامة للنعمة (أنظر سيرة القديس أنطونيوس العد ٣٦)، والسلمي يعلّم بوضوح اننا نخرج من الصلاة وكأننا ملتهبون اذا ما التقينا الله بروح نقي او بإحساس الخبرة. والاّ فالصلاة الخالية من حضور النور ومن الحلاوة التي يعطيها للنفس تكون صلاة جسدية او يهودية برأيه (السلّم المقالة ٢٨). وآخرون كثيرون، ولا سيّما القديس اسحق، يظهرون جلياً ان شعاعاً من الفرح يظهر على وجوه الذين يصلّون، ليس فقط بسبب الصلاة ولكن ايضاً بمناسبة الترنيم الواعي (المقالة ٨٠). ولكن أساس كل ذلك ان نحسّن النفس العاقلة. ان اولئك المفترين على القديسين رفضوا هذا الاساس وجعلوا ملوماً ما هو جدير بالمدح، لقد شوّهوا الشهادات الاكيدة، شهادات الاستنارة المقدسة والالهية، واعتصموا وراء هذه الصغائر التي تؤيد اتهاماتهم وعزموا على اقناع غير المختبرين ـ مع الاسف ! ـ ان ما هو الهي انما هو



شيطاني في الواقع. ولكنهم مقتنعون بصورة خاصة ان « المحفوظ في الظلمات الابدية» (٢ بط ٢ : ٤ و ١٧) يحدث النور حتى ولو فعل ذلك خداعاً. ولكنهم لا يسلّمون بأن الإله الفائق كل استنارة وكل نور والمالىء نوراً معقولاً كل طبيعة عاقلة قادرة ان تتقبل نوراً مناسباً لها، ينير بصورة معقولة (intelligiblement).

هناك معرفتان

٣ ـ أمّا انا فأعتقد ان المعرفة، التي يقولون ـ حسب كلامك ـ انها استنارة العقل الوحيدة، تدعى نوراً بقدر استمدادها من النور الالهي. ان بولس يؤكد ذلك بقوله : «ان الله الذي قال «ليشرق من الظلمة نور، هو الذي اشرق في قلوبنا ليشع نور معرفة مجد الله» (٢ كو ٤ : ٦). وبعده ديونيسيوس العظيم يقول ايضاً : «ان حضور النور المعقول يوحّد المستنيرين ويجمعهم في المعرفة الوحيدة والحقيقية» (في الاسماء الإلهية ٤٠٦ P.G. ٣,٧٠١ B). اما ترى ؟ ان نور المعرفة يُستمد من حضور نور النعمة ويحرر من الجهل الذي يقسّم. فهذا الاب سمّى ذلك النور «معقولاً»، في حين ان مكاريوس الكبير، اذ كان مهتماً ولا شك بمن يحسبون ان نور النعمة هو معرفة، سمّاه «عقلياً» !. فهو يقول : «سوف تعرف ان النور العقلي الذي اضاء في نفسك صادر عن الله او عن الشيطان بحسب مفاعيله» (مقالة في الصبر العدد ١٣ P.G). وفي مكان آخر، بعد ما سمّى المجد الظاهر على وجه موسى «خلوداً» (وان كان قد انار وجهاً قابلاً للموت)، وبيّن كيف يظهر في النفس حال ما نحبّ الله حقيقة، يقول : «كما ان العيون الحسيّة ترى الشمس الحسيّة، كذلك هؤلاء القوم يرون بعيون النفس النور العقلي الذي سوف يظهر وينسكب على الاجساد يوم القيامة ليجعلها هي ايضاً مضاءة بالنور الابدي». اما نور المعرفة فلن نستطيع القول ابداً بأنه «عقلي». فهذا النور بالعكس يفعل احياناً كنور «عقلي» وفي الوقت نفسه يعاينه الذهن، بحسّه العقلي، كنور «معقول». انه عندما يدخل في النفوس العاقلة يحررها من الجهل اللاحق بها لكي يستعيدها

من الآراء المتعددة الى المعرفة الموحّدة. ولذا فإن شاعر «الاسماء الالهية» عندما يتغنّى بأسماء الله النيّرة يعلّمنا ان نقول «ان الصالح يدعى نوراً معقولاً لانه يملأ بنورٍ معقولٍ كل عقل فائق السموات، ولانه يطرد كل جهل وكل ضلال من جميع النفوس التي يدخلها» (الاسماء الالهية ٤ : ٥ P.G) . فالمعرفة الحاصلة بعد طرد الجهل شيء والنور المعقول الذي يُظهر تلك المعرفة شيء آخر. ولذا فالنور المعقول حاضر جلياً في «العقل الفائق السماوات»، اي الذي يتخطى نفسه. فكيف نستطيع ان نسمي «معرفة» هذا النور الفائق السماوات والفائق العقل الاّ على سبيل المجاز والاستعارة ؟ من جهة اخرى ان النفس العاقلة وحدها تستطيع ان تبلغ الى التحرر من الجهل اللاحق بها، والذي سمّاه هذا المعلّم العظيم «جهلاً» و «ضلالاً».

رؤية تفوق التنزيه

٤ ـ ان ذهن الانسان ايضاً ـ لا ذهن الملائكة فقط ـ يتجاوز ذاته، وبتغلّبه على الاهواء يكتسب هيئة ملائكية. وسيحظى بالتالي هو ايضاً على ذلك النور ويصير اهلاً لرؤية الله رؤية فائقة الطبيعة. انه لا يعاين جوهر الله لكنه يرى الله بفعل كشف يتناسب معه ويليق بالله. لا يرى تنزيهياً لانه يرى شيئاً ما ويرى بشكل يفوق التنزيه. لان الله لا يفوق المعرفة فقط بل يفوق اللاّ معرفة (١).

ان كشفه عينه هو بالفعل سرّ ايضاً، السّر الاكثر الوهة والاكثر عجباً، ما دامت الظهورات الالهية، حتى ولو كانت رمزية، تبقى في تعاليها غير قابلة للمعرفة. فإنها تظهر تبعاً لشرعة ليست شرعة الطبيعة الالهية ولا شرعة الطبيعة البشرية ـ هي اذا جاز القول من اجلنا وفي الوقت نفسه

١) هذه الفكرة اساسية في فكر بلاماس : ان رؤية اله لا يمكن معرفته كلياً هي رؤية ايجابية وليست عدماً لان الله، بحسب ديونيسيوس المنتحل، ليس فقط لا يُعرف بل ايضاً يفوق اللامعرفة.



تتجاوزنا ـ بحيث لا يوجد اسم قادر على التعبير عنها على وجه موافق. وقد بيّن ذلك من اجاب على سؤال منوح «ما اسمك» بقوله «اسمي عجيب» (قضاة ١٣ : ١٧ ـ ١٨). فالرؤية، وان كانت لا تدرك، بل ايضاً لا تسمى، تبقى عجيبة. ولكن مع كونها تتجاوز التنزيه فالكلام الذي يعبّر عنها ادنى من طريقة التنزيه: إنه يتدرّج باستخدامه الامثلة والمشابهات، ولذا يضيفون على الكلمات المستعملة، في اكثر الاحيان، عبارة «وكأن»، تعبيراً عن المشابهة وحدها، لان الرؤية فائقة التعبير وهي تجاوز كل تسمية.

التجاوز الفائق السماوات

٥ ـ وعندما يعاين القديسون هذا النور الالهي في داخلهم ـ انهم يعاينونه حين يقتنون شركة الروح القدس المؤلهة لمؤالفتهم السرية للاستنارات الكاملة ـ فهم انما يعاينون رداء تأليههم، اذ يكون ذهنهم ممجداً بنعمة الكلمة وممتلئاً بهاءً عجيباً في جماله، مثلما مجّدت الوهة الكلمة بنور الهي على الجبل الجسد الذي كان ملازماً له. لان «المجد الذي وهبه اياه الآب» وهبه هو لمن اطاعوا (يو ١٧ : ٢٢)، و«شاء ان يكونوا معه ويعاينوا مجده» (يو ١٧ : ٢٤). كيف يمكن ان يحصل هذا جسدياً بينما لم يعد هو حاضراً بالجسد بعد صعوده الى السماء ؟ ان هذا بالتالي يحصل بالضرورة عقلياً عندما يصير الذهن فائق السماوات، وكأنه صار رفيق من انتقل من اجلنا الى ما فوق السماوات، حين يتحد هناك بالله بصورة واضحة وسرية ويعاين الرؤى الفائقة الطبيعة والسرية، ممتلئاً بمعرفة نورٍ سامٍ، معرفة كلية لا هيولية. حينذاك لا يعود يعاين رموزاً مقدسة تدرك بالحواس ولا يعود يعرف تنوّع الكتاب المقدس : انه يكون مزيّناً بالجمال الخالق، ينبوع الجمال، منوّراً ببهاء الله. على هذا المنوال ان رتب الارواح السنيّة الفائقة العالم ـ على حسب من كشف «تراتبيّتها» وفسّرها ـ تمتلئ تراتبيّاً وشبهاً لذواتها، ليس فقط بالمعرفة والخبرة الاولبين، بل ايضاً بالنور الاول عينه من اجل تلقنهم التلقين

الثالوثي الجليل. انهم لا يغنمون الاسهام بالمجد الثالوثي ومعاينته فقط، بل ايضاً مساهمة ومعاينة نور المسيح، ذاك الذي كُشف للتلاميذ على جبل ثابور ايضاً. فإذ حسبوا اهلاً لهذه الرؤيا هم يتلقّون تلقيناً، لان هذا النور هو ايضاً نور مؤلِّه. فيقتربون منه حقيقةً ويشتركون أول من يشتركون بأنواره المؤلِّهة. ولذا مكاريوس، المغبوط فعلاً، يسمي هذا النور «غذاء الكائنات الفائقة السماوات» (العظة ١٢ : ١٤). واليكم ما يقول لاهوتي آخر: «ان كل التنظيم المعقول للكائنات الفائقة العالم، عند احتفالها لاهيوليا بهذا النور، يأتينا ببرهان واضح وضوحاً كاملاً عن محبة الكلمة لنا» (اندراوس الكريتي، الموعظة السابعة). وبولس العظيم، حين تلقى بالمسيح الرؤى غير المنظورة والفائقة السماوات، «اختطف» واصبح فائق السماوات دون ان يحتاج ذهنه الى العبور الى ما فوق السماوات بتغيير مكانه فعلاً. فهذا «الاختطاف» يدل على سر مختلف كل الاختلاف لا يعرفه الا الذين خبروه. غير انه ليس من الضروري ان نذكر اليوم ما سمعناه في هذا المجال لدى الآباء الذين اختبروه، لكي لا نعرّضه للافتراء. ولكن ما قيل حتى الآن يكفينا لان نبيّن بكثير من السهولة لغير المقتنعين، ان هناك استنارة عقلية، يعاينها من طهّروا قلوبهم، تختلف عن المعرفة كلياً وتستطيع ان تؤتي هذه المعرفة.

العهد القديم والعهد الجديد

٦ ـ كما قلت انت، هم يؤكدون ان الاستنارات التي حصلت في العهد القديم كانت ذات طابع رمزي. فيُظهرون اذاً ان هناك استنارة مقدسة كانت تلك الاستنارات رمزاً لها. القديس نيلوس يعلّمنا ان اكثرها كانت بالفعل رموزاً لهذه الاستنارات اذ يقول: «عندما يرتدي الذهن الانسان المولود من النعمة بعد طرحه الانسان العتيق، يبصر ذاته حينذاك اثناء الصلاة كأنها شبه ياقوت ازرق او كلونِ سماوي. الكتاب المقدس يسمّي هذا مكان الله (خروج ٢٤ : ٢) الذي شاهده شيوخ اسرائيل في سفح جبل سيناء». كذلك نسمع القديس اسحق يقول لنا: «ان الذهن، بفعل النعمة، يعايَن نقاوته اثناء الصلاة مثل اللون



الفائق السماء الذي دعته جماعة اسرائيل مكان الله، حين ظهر لهم على الجبل» (العظة ٣٢). الا ترى ان هذه الاستنارات هي رموز لما يتم اليوم في القلوب النقية ؟ ويوحنا، الذهبي الفم والذهن معاً، يتفحّص كلام الرسول القائل : «ان الله الذي قال ليشرق من الظلمة النور هو الذي اشرق في قلوبنا» (٢ كو ٤ :٦)، فيرى ان الرسول انما يبيّن ان مجد موسى قد اضاء فينا مزداداً، لانه اشرق في قلوبنا كما على وجه موسى. ثم يقول بعد قليل : «في بدء الخلق قال فكان النور، ولكنه اليوم لم يقل، بل صار هو نفسه نورنا» (الرسالة الثانية الى كورنثوس ٨ : ٣ P.G). اذاً ان كان النور الذي اشرق في بدء الخلق، او الذي اشرق على وجه موسى، معرفة محدودة، فالاستنارة الحاصلة في قلوبنا هي ايضاً معرفة، ولكنها معرفة اسمى اذ قد تلقت «زيادة». ولكن ما دام ذلك النور لم يكن معرفة، بل لمعاناً بادياً على الوجه، فالاستنارة الحاصلة فينا ليست ايضاً معرفة بل هي لمعان النفس بادياً للذهن المتنقّي. فيجب، اذاً، القول بأن ذلك النور المدرك بالعيون الحسيّة هو ايضاً حسّي بينما هذا النور هو معقول ما دامت العيون المعقولة وحدها تدركه وما دام يفعل في داخلنا.

النور والمعرفة

٧ ـ ولكن ذلك النور لم يكن مجرّد نور حسّي، وان كان قد ظهر على وجه النبي. فالقديسون اليوم، حسب القديس مكاريوس، يتقبّلون في نفوسهم المجد البادي على وجه موسى. وهذا الاب نفسه يدعو هذا النور «مجد المسيح»، ويعدّه فوق الحواس وان كان ظهوره يدرك بالحواس. انه يبرز قول الرسول التالي مع اضافة صغيرة عليه : «نحن جميعاً الذين نعاين صورة مجد الرب بوجوه مكشوفة كما في مرآة، اي نوره العقلي، نتحوّل الى تلك الصورة ونزداد مجداً على مجد، اعني من خلال مزيد النور الذي فينا والذي، بفعل النور الالهي، يزداد وضوحاً على الدوام» (٢ كو ٣ : ١٨). ماذا يقول

بدوره ذياذوخس ؟ «لا شكّ ان الذهن لمّا يبدأ فيحسّ بتواتر بفعل النور الالهي، يصبح كله شفافاً ويعاين وفرة نوره هو. لانه يصبح كله ذلك النور حين تسود قوة النفس على الاهواء» (المقالة ٤٠). وماذا يقول مكسيموس الالهي ؟ «ما كان لذهن بشري ان يرتفع حتى يتلقى اللمعان الالهي لو لم يرفعه الله وينره بومضات الهية» (المئوية العرفانية ١ : P.G. ٣١). ماذا يقول ايضاً مع باسيليوس الكبير نيلوس عمود الحق ذاك ؟ «يؤكد باسيليوس الكبادوكي ان المعرفة البشرية ليست سوى دراسة وتمرين، في حين ان المعرفة الحاصلة بنعمة الله هي برّ ورحمة. يستطيع اكتساب الاولى الخاضعون للاهواء بينما لا يتقبّل الثانية الا الذين كبحوا الاهواء، وهم يبصرون لمعان ذهنهم عينه ينيرهم حتى خارج اوقات الصلاة». هل تفهم جلياً ايها الاخ ان الذهن المتحرر من الاهواء يعاين ذاته كنور اثناء الصلاة ويستضيء بنور الهي ؟ أعرْ، اذن، الآن اذناً صاغية واسمع ايضاً مكاريوس، المغبوط حقاً، الذي يسميه نيلوس الالهي «إناء مختاراً»، والذي يقول في المقالات التي شرحها ميتافراست : «ان استنارة الروح الكاملة ليست فقط مثل كشف افكار، بل هي استنارة نور اقنومي مستمرة وثابتة في النفس. وهذا تثبّته آيات كالتالية : «الذي قال ليشرق من الظلمة نور هو الذي اشرق في قلوبنا» (٢ كو ٤ : ٦)، و «أنرْ عيني لئلا انام نومة الموت» (مز ١٢ : ٣)، و«ارسل نورك وحقك فهما يهديانني الى جبل قدسك» (مز ٤٢ : ٣) و «نور وجهك قد ارتسم علينا» (مز ٤ : ٦) وآيات اخرى مماثلة». (De Liberate mentis ٢٢). قال «أقنومياً» لكي يسكت الذين يحسبون المعرفة وحدها استنارة ويبلبلون عقل الكثيرين وعقلهم اولا بتفسيرهم الكاذب لكل ما قيل عن ذلك النور ونسبهم اياه للمعرفة. اما انا فأعلم ان المعرفة تسمّى ايضاً «نوراً» اشتقاقاً من ذلك النور كونه هو احدثها. وقد سبق ان قلت ذلك أعلاه.

النار العقلية

٨ ـ لهذا السبب لم يسمّ احد يوماً المعرفة الناتجة عن الحواس «نورا»،



وان كانت احياناً معرفة أكيدة جداً. فقط تسمّى نوراً المعرفة العاقلة الناتجة عن الذهن. فإننا لا نرى كائناً عاقلاً ليس نوراً عقلياً. الملائكة هم مثل نار لاهيولية عادمة الجسد: فما عساها تكون الا نوراً عقلياً ؟ الذهن الذي يعاين ذاته يعاين مثل نور: ما هذا ايضاً ان لم يكن معاينته النور العقلي ؟ والله نفسه الذي يعلو على كل نور عقلي ويتسامى على كل جوهر بصورة فائقة الجوهر، يدعوه اللاهوتيون «ناراً». انه يمتلك في ذاته هذا الطابع السرّي وغير المنظور (كصورة غامضة لماهية النار بين الاشياء الحسّية) عند عدم توفر مادة لتتقبل الظهور الالهي. ولكنه عندما يستولي على مادة مناسبة وغير محجوبة (مثلاً كأية طبيعة عقلية متنقّية لا تحمل حجاب الشر)، حينذاك يظهر هو كنور عقلي، كما بيّناه وكما سنبيّنه ايضاً بالاستناد الى القديسين الذين يعانون ويعاينون لمعان الله.

عمل العين العقلية

٩ - كما ان النار التي تحجبها مادة غير شفافة تستطيع ان تسخّن هذه المادة، ولكنها لا تستطيع ان تخرج نوراً، كذلك الذهن المحجوب بالاهواء الرديئة يستطيع ان يؤتي معرفة لا نوراً. الذهن نور عندما يعاين ذاته، وان كان هذا النور آخر الانوار التي تُرى على هذا النحو، ولكنه ايضاً أداة للمعاينة بوصفه عيناً للنفس. فقد قيل «ان الذهن الملتصق بالنفس هو عضو البصر للنفس». كما ان العين الحسّية لا تقدر ان تبصر ما لم تستضيء بالنور من الخارج، كذلك الذهن لا يقدر ان يستبين عضواً للاحساس العقلي ويعمل من تلقاء ذاته ان لم يستضيء بالنور الالهي. وكما ان العين عندما تعمل تصبح نوراً وتمتزج بالنور وتبصر اول ما تبصر هذا النور عينه منسكباً على الاشياء التي تبصر، كذلك الذهن عندما يمارس احساسه العقلي يكون كلّه مثل نور. يكون حينذاك مع النور، وبمساعدة النور يعاين النور جلياً على نحو اسمى ليس فقط من الحواس الجسدية بل من كل شيء يُعرَف، وبكلمة واحدة من كل

الكائنات. لان انقيـاء القلوب يعـاينون الله حـسب قول الرب الصـادق. هذا و«الله هو نور» (١ يو ١ : ٥) حسب القول الاكثر لاهوتية ليوحنا ابن الرعد. انه يسكن في الذين يحبونه والذين يحبهم ويظهر لهم ذاته، حسب وعده (يو ١٤ : ٢١). يتراءى للذهن النقي كما في مرآة مع بقائه غير منظور في ذاته. اذ على هذا النحو هي الصورة الظاهرة في مرآة: انها تتراءى مع بقائها غير منظورة، ويكاد يتعذّر ان نرى في آن واحد الصورة البادية في المرآة وما تعكسه هذه المرآة.

الزمن الحاضر والنجاز الاخير

١٠ـ على هذا المنوال يتراءى الله اليوم لمن تطهّروا بالحب، ولكن سيأتي يوم سيتراءى فيه لهم «وجهاً لوجه» كما قيل (١ كو ١٣ : ١٢). ان الذين لا يؤمنون بأن الله يتراءى كنور فائق النور، لعدم خبرتهم بالالهيات وعدم معاينتهم لها، الذين يؤمنون بأن العقل وحده يستطيع ان يعاينه، هم مثل عميان يتلقّون دفء الشمس فقط ولكن لا يصدّقون من يبصرون بهاءها ايضاً. واذا عمدوا، فوق ذلك، الى تعليم المبصرين بقولهم ان الشمس ليست نوراً، بينما هي الشيء الحسّي الاكثر نوراً، فالذين لهم عيون حسية سوف لا يسعهم الا ان يسخروا بهم. والقوم الذين تذكرهم يكادون يكونون في مثل هذا الوضع عينه نسبةً «لشمس العدل» (ملاخي ٤ :٢) الفائق العالم. فسيندب حظهم لا الذين يملكون حقاً البصر العقلي وحسب، بل ايضاً من يثقون بهؤلاء المبصرين. ان الله، لفائض محبته لنا، وهو المتعالي على كل شيء وغير المدرك، والفائق الوصف، يرضى ان يُشرك عقلنا به وان يُرى بنحو غير مرئي، في عزّته الفائقة الجوهر والممتنعة الانفصال، ولكن هؤلاء لا يقابلون بالمحبة تلك المحبة الجلية والمعقولة في ذاتها. اكثر من هذا، انهم لا يريدون ان يقتدوا بالقديسين الذين، بدافع محبتهم للناس، يقودونهم بأقوالهم نحو ذلك النور، بل يعزمون بادّعاء كلي على اجتذاب من يثقون بالقديسين ليجعلوهم رفاقاً لهم عندما «يعاينون مثل نار، حسب قول غريغوريوس



اللاهوتي، من لم يعرفوه كنور» (العظة ٢١ : ٢) ومن لم يؤمنوا به. ولكن هذه النار تملأها الظلمات، بل تطابق الظلمات التي تهددنا : تلك «المُعدّة لإبليس وملائكته» حسب قول الرب (متى ٢٥ : ٤١). فهذه الظلمات ليست بالتالي مجرّد ظلمات حسّية، لانها معدة للملائكة الاشرار العديمي الاحساس، كما انها ليست مجرّد جهل، لان الذين يقنعهم اليوم ورثة هذه الظلمات لن يجهلوا الله اكثر مما يجهلونه الآن. بل سيعرفونه بصورة أفضل، لانه قيل : «كل جسد سيشهد ان يسوع هو الرب لمجد الله الآب» (أنظر في ٢ : ١١) آمين. فهذا النور، اذاً، ليس حسياً بكل معنى الكلمة، وليس هو معرفة ما دامت الظلمات التي تقابله ليست جهلاً. فإذا كان هذا النور، مع كونه ليس معرفة، يؤتي معرفة اسرار الله معرفة روحية خفية، فإن بواكيره التي يعاينها منذ الآن من طهّروا قلوبهم لا يمكن ان تكون معرفة فقط، ولكنها مع ذلك تؤتيهم معرفة توافقهم : انها نور معقول وعقلي بل نور روحي. انها حاضرة ومرئية روحياً، تتسامى كل السمو على كل معرفة وكل فضيلة، ووحدها تؤتي المسيحيين الكمال الذي يستطيعون الوصول اليه منذ هذا الدهر، والذي ينجم لا عن اقتفاء آخرين او عن عمل عاقل بل نتيجة كشفٍ ونعمة من الروح.

سبب مجيء المسيح

١١ ـ ولذا يقول لنا مكاريوس الكبير، تؤيده شهادة سمعان، الذي الاستماع اليه اكثر حلاوة بين الشرّاح : «ان الرسول الالهي بولس أبان لكل نفس كامل سرّ المسيحية بصورة صحيحة جداً ونيّرة : فهذا السر هو بهاء نور سماوي يحدث في كشف الهي وبقوة الروح. ذلك لئلا نعتقد ان استنارتنا بالروح تحصل فقط عن طريق المعرفة الفكرية، ولئلا نتعرّض، عن جهل ولا مبالاة، الى سوء فهم سرّ النعمة بكماله. لذا يقدّم لنا مثال مجد الروح المحيط بوجه موسى كبرهان يقرّ به الجميع، فيقول : اذا كان الزائل قد صار في مجد فالدائم اكثر مجداً بكثير (٢ كو ٣ : ١١). قال «الزائل» لان المجد كان يحيط بجسد

موسى المائت، ولكنـه أبان ان مجد الروح الخـالد، ذاك الذي تراءى في كشف إلهي والذي هـو اليوم على وجـه الانسان الداخلي غـير المائت، يسطع على الدوام للخليقين به، فيقول : نحن جميعاً، اي الذين ولدنا من الروح، بمقتضى ايمان كامل، نحن جميعاً الذين بوجه مكشوف نعاين صورة مجد الرب نتحوّل الى تلك الصورة عينها من مجد الى مجد كما من الرب الروح (٢ كو ٣ : ١٨). بوجه مكشوف اي وجه النفس، لانه يقول ان الحجاب يُرفع عند الاهتداء الى الرب (٢ كـو ٣ : ١٦)، والرب هو الروح (٢ كـو ٣ : ١٨). وبهـذا أبان جليـاً ان حجـابـاً من الظلمـة قـد غطّى النفس، حجـابـاً استطاع ان ينسـاب الى الجنس البشـري نتيجة معصيـة آدم. ولكن هذا الحجاب مرفـوع اليوم، بفعل استنارة الروح، من النفـوس المؤمنة حـقـاً والخليـقـة بذلك. هـذا هو سـبب مـجيء المسيح» (De libertate mentis 21 P.G.).

الانسان النفساني لا يقبل ما هو للروح

١٢ ـ الا ترى ايهـا الاخ كيف ان هذه الاستنارات الحسّية الحـاصلة في العهـد القـديم سبقت فـرسمت الاسـتنارة بالروح التـي تحـدث في نفـوس المؤمنين بالمسيـح فـعلاً، وحـقيـقـةً ؟ كـان يقتضي ان تجـتذب الذين يتكلمـون عنهـا كظهـورات حـسيـة ورمـزية الى الايمان والى البـحث عن المسيـح ! بينمـا هم بالعكس يحاولـون بكل الوسائل ان يأتوا الى عدم الايمان بالـذين يؤمنون بها، بل اذا امكن بالذين تقبّلوا النعمـة بصـورة منظورة ويمتلكون بفضلهـا معرفـة عادمـة الزوال. انهم يتجاسرون بحمـاقة على اعادة تعليم الذيـن لقّنهم الاسرار الله وظهـوراته وقـواه الروحية. حتى انهـم لا يدعون انفسهم يتـأثرون ببولس العظيم قـائلاً : «الانسان الروحي يحكم في كل شيء ولا يـحكم فيـه احد لان له فكر المسيح، فمن عرف فكر الرب ليعلّمه ؟ » (١ كو ٢ : ١٥ ـ ١٦)، اي ليجعل ما هو للروح جديراً بالثقة، بغربلتهم اياه بالمحـاكمـة ؟ لان الذي يثق بمحـاكـماتـه وبما تطرحهـا، الذي يعتـقد بالوصول الـى كامل الحقيقة عن طريق الـتمييزات والقيـاسـات والتحليـلات المنطقيـة لا يستطيع اطلاقاً ان يعـرف ما هو للانسـان



الروحاني ولا ان يؤمن بها. ان مثل هذا الانسان انسان نفساني بشري : «والانسان البشري، يقول بولس، لا يقبل ما هو للروح» (١ كو ٢ : ١٤) ولا يستطيع ذلك. فمن اين لجاهل، لرجل لا ايمان له ان يعرّفه لبقية الناس عن طريق المنطق وحسب ويجعله جديراً بالثقة ؟ لهذا السبب من ليس له هدوء ولا يقظة ذهن، ولا خبرة بما يتمّ فيها روحياً وسرياً، ويعطي دروساً في اليقظة طبقاً لمحاكماته محاولاً ان يبيّن بالكلام «الصلاح» الذي يتجاوز كل كلام، هذا قد سقط جلياً في اقصى الحماقة وصار جاهلاً في حكمته (انظر رو ١ : ٢٢ و ١ كو ١ : ٢٠). لقد عزم بحماقة على رصد الفائق الطبيعة بمعرفة طبيعية، وعلى فحص «اعماق الله» التي يعرفها الروح وحده (١ كو ٢ : ١٠) وتبيانها بعقل طبيعي وفلسفة جسدية، وفحص مواهب الروح التي لا يعرفها الا الاناس الروحانيون، والذين يقتنون روح المسيح (١ كو ٢ : ١٣ - ١٦). بل سوف يصل في جنونه الى ان يصير عدو الله - يا للشقاء ! - بعرضه الباطل لعمل الروح الصالح ونعمته كأنهما لبليعار، وبمعارضته للذين «نالوا الروح الذي اتى من الله ليعرفوا ما انعم الله به علينا من المواهب» (١ كو ٢ : ١٢). سوف يرث «الشقاء» من جرّاء الاذى الذي يسببه لسامعيه : «ويل لمن يسقي اخاه حثالة الخمر» يقول النبي (حبقوق ٢ : ١٥ السبعينية).

اي قول يستطيع ان يناقض الحياة ؟

١٣ - فعلى الذين يستطيعون الحكم في كل شيء، اعني الروحيين - اذ ان «الروحي يحكم في كل شيء» حسب قول الرسول (١ كو ٢ : ١٥) - ان يُخضعوا لسلطانهم الذين لا يستطيعون الحكم، حتى يتيحوا لهم ان يعرفوا انفسهم تمام المعرفة. اما اولئك القوم فيعمدون بالعكس الى الحكم على الروحيين والى اصلاح من لا يحكم فيهم احد («فالروحي، يقول الرسول، لا يُحكم فيه من احد» (١ كو ٢ : ١٥)، وذلك لهلاكهم وهلاك اتباعهم. فإنهم يقولون ان لا أحد يستطيع الاشتراك في الكمال والقداسة ما لم يقتنِ الرأي الصحيح في الكائنات،

الذي يتعذر اقتناؤه دون تمييز واستدلال وتحليل. وبالتالي فعلى من يبتغي التمتع بالكمال والقداسة ان يتلقى بالضرورة تعليم العلم الدنيوي ويبحث فيه عن طرائق التمييز والاستدلال والتحليل: هذا ما يظنون اقتيادنا اليه! ولهذه الغاية يحاولون ان يعيدوا تنشيط الحكمة التي أُلغيت نهائياً. لكنهم لو توجهوا بكل اتضاع الى الذين يستطيعون «الحكم في كل شيء»، راغبين في التعرّف على الحقيقة، لقيل لهم ان رأيهم ينجم عن الفكر الهلليني، وانه يطابق هرطقة الرواقيين والفيثاغوريين الذين يؤكدون ان المعرفة الاختبارية الناتجة عن دراسة العلوم هي غاية المعاينة. اما نحن فنعتقد ان الرأي الصحيح ليس هو ما نلقاه في الاقوال والاستدلالات، بل ما تبرهنه الافعال والحياة. فهي وحدها الصحيحة، بل وحدها الاكيدة وغير القابلة للتحوّل. «كل قول يناقضه قول آخر» حسب المثل الدارج، ولكن اي قول يستطيع ان يناقض الحياة؟ بل نعتقد انه يتعذر حتى معرفة الذات بطرائق التمييز والاستدلال والتحليل، ما لم نتحرر من روح الكبرياء عن طريق توبة صارمة ونسك نشيط. لان الذي لا يحرّر ذهنه بهذه الوسائل لن يدرك حتى فقره في مجال المعرفة، كبداية نافعة لاقتناء معرفة الذات.

المعارف الدنيوية لا تقود بالضرورة الى الخلاص

١٤ ـ ولكن لا ينبغي ان يقدم انسان عاقل على الحكم على عدم المعرفة بصورة عامة، كما لا نعتقد من جهة اخرى بوجوب اعتبار كل معرفة حسنة. لِمَ ينبغي احتساب المعرفة هدفاً يحدّد كل نشاطنا؟ يقول باسيليوس الكبير: «للحقيقة وجهان: وجه يجب اقتناؤه اطلاقاً ونقله للآخرين، لأنه يسهم في خلاصنا. أما الارض والبحر والسماء وما فيها، فإذا لم نر الحقيقة الخاصة بها، فلا شيء يمنعنا من اقتناء الغبطة الموعودة لنا» (في تعليقه على المزمور ١٤ P.G. ٢٩,٢٥٦ BC). الغاية الموضوعة امامنا هي المواعيد الالهية بخيرات الحياة الآتية، البنوة، التألّه، الكشف، امتلاك الكنوز السماوية والتنعّم بها. اما المعرفة الناجمة عن الدراسة الدنيوية فنحن نعلم ان



لها نصيب هذا الدهر. فإن كان للاقوال الحسية ان تثبت حقيقة الدهر الآتي فحكماء هذا الدهر يرثون ملكوت السماوات. ولكن مكسيموس الفيلسوف الحقيقي يقول لنا : «ان كانت المعاينة لنقاوة النفس فالحكماء سيكونون بعيدين عن معرفة الله» (١) ما حاجتنا لمعرفة لا تقرّبنا الى الله ؟ ولماذا لا نستطيع بدونها اكتساب الكمال والقداسة ؟

عندما نرفض ما هو فائق الطبيعة نرفض ايضاً ما هو طبيعي

١٥ ـ أدع الآن جانباً الآراء الاخرى لهؤلاء القوم الادعياء الذين يغترّون حتى انهم يفسرون اسفار الروح تفسيراً باطلاً ويستخدمونها ضد الاعمال الروحية والرجال الروحيين. ولن ازيد الاّ ما يتعلّق بالبحث الحاضر. فهم يقولون ان الله غير منظور وغير مدرك :«الله لم يره احد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبّر» (يو ١ : ١٨). فكيف لا يكون ضالّين الذين يؤكدون معاينة الله في ذواتهم كنور عقلي؟» ان اياً ممن يهاجمونهم قادر ان يجيبهم بما قاله الكلمة ابن الله الوحيد : «ان انقياء القلوب يعاينون الله (متى ٥ : ٨)، «وسأظهر لهم ذاتي (يو ١٤ : ٢١)، صانعاً عندهم مع الآب منزلي» (انظر يو ١٤ : ٢٣). ولكنهم يردّون فوراً ان هذه المعاينة هي المعرفة، غير مدركين انهم يناقضون انفسهم. لان ما هو الهي ليس فقط غير منظور بل هو ايضاً غير مدرك. وبالتالي الذين يعلّمون ان رؤية الله في النور عقلياً هي ثمرة خيال ضال وعمل شيطاني لان الله غير منظور، عليهم ايضاً ان يرفضوا المعرفة، من جملة الثرثرات المماثلة، لان الله غير مدرك. ولكننا نؤثر عدم اجابتهم بشيء بشأن المعرفة، لانهم على وفاق معنا حتى ان كانوا لا يفهمون ما يقولون. فهناك معرفة لله وتعاليمه، معاينة ندعوها لاهوتاً. ومن جهة اخرى ان استعمال قدرات النفس وأعضاء الجسد وتحرّكها الطبيعي يحدثان تغييراً في

---

١) القول لإفاكريوس (المئوية ٦ : ٢٢)

الصورة العاقلة. ولكن ليس هذا بالجمال الخالص لحالتنا السامية الآتية الينا من فوق. ليس هذا بالاتحاد الفائق الطبيعة بالنور الفائق الضياء، الذي هو المصدر الوحيد للاهوت أكيد، من شأنه اقامة وتحريك القدرات الداخلية للنفس والجسد طبقاً للطبيعة. فبرفضهم اياه هم يرفضون ايضاً كل فضيلة وكل حقيقة.

روح الله وجسد المسيح

١٦ ـ أمّا ان لا تمّت اية معاينة في غاية الروحية وغاية السمو الى نطاق المعرفة التي يتكلمون عنها، بل وان تكون مثل هذه المعاينة لله غير ذات وجود اطلاقاً، ما دام الله غير منظور، فقد تعلّمناه من الذين عاينوا المعاينة الحقيقية. الا اننا سنسألهم السؤال التالي: هل تعتقدون ان الروح القدس لا يعاين هو ايضاً ما يختص بالله؟ ولكنه «يفحص حتى اعماق الله» (١ كو ٢: ١٠). ان ادّعى احد معاينة النور النقي خارج الروح القدس كنتم على حق في معارضته والقول له: «كيف يمكن معاينة غير المنظور»؟ اما اذا نبذ انسان روح العالم الذي يسمّيه الآباء «ظلمات معقولة تثقّل القلوب غير المنقّاة»، اذا نبذ ذلك وتنقى من كل مشيئة ذاتية، وابتعد عن كل تقليد بشري من شأنه ان يعيق همته، ولو قليلاً، في اتمام واجبه، ولو بدا هذا التقليد حسناً بحسب باسيليوس الكبير، وان جمع كما ينبغي قدرات نفسه واقام في اليقظة عين قلبه، فعاش متأملاً في ذهنه ما هو بحسب الطبيعة وما هو مرضي لله، واذا من جهة اخرى تخطى ذاته وتقبّل فيه «الروح الذي من الله» والذي «يعرف امور الله كما يعرف روح الانسان ما في الانسان» (١ كو ٢: ١١)، اذا تقبّل هذا الروح وفقاً لكرازة بولس العظيم، «لكي يعرف الاشياء التي وهبه الله اياها ميستيكياً بنعمته» (١ كو ٢: ١٢) و«التي لم ترها عين ولم تسمع بها اذن ولم تخطر على بال انسان» (١ كو ٢: ٩)، كيف لهذا الانسان ان لا يعاين بالروح النور غير المنظور؟ كيف لا يبقى هذا النور من جهته غير منظور وغير مسموع وغير مدرك، مع كونه موضوع الرؤية؟ لان الذين ينظرون يرون ما



«لم تره عين وما لم تسمع به اذن ولم يخطر على بال انسان» ! فهؤلاء الرجال ينالون عيوناً روحية و«لهم فكر المسيح» (١ كو ٢ : ١٦) : فيمكنهم معاينة اللامنظور وادراك اللامدرَك، لانه ليس غير منظور لذاته بل للذين يفكّرون ويرون بعيون وافكار مخلوقة وطبيعية. اما الذين تكيّف الله عليهم، بمثابة عضو يقودهم، كيف لا يمدّهم بصورة جلية بمعاينة نعمته ؟

التجريد والرؤية الموضوعية

١٧ ـ كيف له ان لا يطبّق مقولة لاهوت نشيد الأنشاد حين يتغنّى بالقوة الروحية التي في عيونهم ؟ فهو يقول لهم : «جميلة انتِ يا خليلتي، جميلة انت، وعيناك كحمامتين» (نشيد الأنشاد ١ : ١٥). وهم، اذ يختلجون لجمال العريس المعقول، يسبّحونه بدورهم تسبيحاً وافراً بالالفاظ عينها. ان المسارّين يعرفون من هي تلك الحمامة في عيني العروس، عندما تشاهد للمرة الاولى جلياً جمال الله، عريسها، وتصف تفصيلاً هذا الجمال الخير للمستعدين ان يسمعوها بإيمان. كما ان بريق العيون اذا ما اتحد ببريق الشمس يصبح نوراً عندما ينظر، فيعاين الاشياء الحسيّة، كذلك الذهن عندما يصير «روحاً واحداً مع الرب» (١ كو ٦ : ١٧) يعاين الامور الروحية بالوضوح نفسه. ولكن المعلّم هنا ايضاً يبقى غير منظور بصورة اخرى، اسمى بكثير من التي تجعله غير منظور للمحاكمات المبتذلة، محاكمات الذين يعمدون الى مناقضة الروحانيين. اذ لم يعاين احد ذلك الجمال بأكمله، ولذا «لم تره عين وان تطلّعت على الدوام» كما يقول غريغوريوس النيصصي (في العظة عن نشيد الأنشاد). فإنها لا ترى هذا الكمال كما هو بل فقط بالقدر الذي جعلت به نفسها متقبّلة لقوة الروح الالهي. ولكن الى جانب هذه اللاّادراكية، اليكم ما هو الأكثر ألوهية وعجباً: انهم اذا ما اقتنوا ادراكاً يقتنونه بصورة غير مدركة. فالذين يرون لا يعرفون حينذاك ما الذي يتيح لهم ان يروا ويسمعوا ويُلمّوا، سواءً بمعرفة المستقبل أو بخبرة الامور الابدية، لان الروح القدس

الذي به يرون هو غير مدرك كما يقول ديونيسيوس العظيم : «ان مثل اتحاد المؤلَّهين هذا مع النور الآتي من فوق يتم عندما يتوقف كل نشاط عقلي» (في الأسماء الإلهية ١ : ٥ P.G. ٣,٥٩٣ C). ليس هو حصيلة علة او صلة ما، لان هاتين تتعلّقان بنشاط الذهن، ولكنه يتم بالتجريد، دون ان يكون هو التجريد. لانه لو كان تجريداً وحسب لكان يخضع لنا وهذا هو تعليم بدعة «المصلّين» : «نصعد حين نشاء نحو اسرار الله الخفية» كما يقول عنهم القديس اسحق (الرسالة ٤). فالمعاينة ليست فقط تجريداً وتنزيهاً. هي اتحاد وتألّه يحدث ميستيكياً بصورة لا توصف بنعمة الله، بعد التجريد عن كل ما يأتي من اسفل ليَسِمَ الذهن، أو بالاحرى بعد توقف كل نشاط عقلي، وهذا اكثر من تجريد. اذ ليس التجريد سوى علامة هذا التوقف. لذا يستطيع كل مؤمن ان يفصل الله عن كل المخلوقات، بينما توقفُ كل نشاط عقلي والاتحاد الناجم عنه مع النور الآتي من فوق، هو حالة موضوعية وإتمام مؤلِّه. انه فقط للذين نقّوا قلوبهم وتقبّلوا النعمة. وما بالي اتكلم عن الاتحاد ولم تظهر الرؤية الوجيزة نفسها الاّ للتلاميذ المختارين، الذين انعتقوا من كل ادراك حسّي وعقلي، واهّلوا للرؤية الحقيقية، لانهم كانوا قد توقفوا عن النظر، كما ان حواساً فائقة الطبيعة قد أُضفت عليهم، لانهم كانوا يتقبلون دون ان يعرفوا. ولكننا سنبيّن فيما بعد، بعون الله، انهم قد عاينوا، وان اداة معاينتهم لم تكن، بحصر المعنى، لا الحواس ولا الذهن.

الاتحاد الحقيقي بالله

١٨ ـ افلا ترى منذ الآن انهم انما يحصلون على الروح القدس غير المدرك، عوض الذهن والعين والاذن، وبه يرون ويسمعون ويدركون ؟ لانه ان كان نشاطهم العقلي قد توقف بأكمله، فمن اين للملائكة وللناس المماثلين الملائكة ان يعاينوا الله الاّ بقوة الروح ؟ لذا فمعاينتهم ليست هي احساساً، ما داموا لا يحوزونها عن طريق الحواس. وليست ايضاً عملاً عقلياً، ما داموا لا يلقونها في الفكر وفي المعرفة الناتجة عن الفكر، بل بعد توقف كل نشاط فكري.



فليست هي بالتالي حصيلة المخيّلة ولا حصيلة العقل. ليست اعتقاداً كما انها ليست خاتمة قياس. من جهة اخرى لا يقتنيها الذهن بمجرد ارتقائه بالتنزيه. لان كل وصية الهية وكل شرعة مقدسة تنتهي حسب الآباء بنقاوة القلب. وكل شكل ووجه من اشكال ووجوه الصلاة يتمّ بالصلاة النقية. وكل عقل يرتفع نحو المتعالي المنفصل عن العالم يتوقف عن العمل، بعد تجريده من كل الكائنات. ولكن من الخطأ القول انه ليس بعد حفظ الوصايا الالهية سوى نقاوة القلب. فهناك اشياء اخرى، اشياء كثيرة: هناك عربون الامور الموعود بها الحاضر منذ هذا الدهر، وخيرات الدهر الآتي، التي تُرى ويُبلغ اليها عن طريق نقاوة القلب هذه. كذلك هناك، ما بعد الصلاة، الرؤية التي لا ينطق بها، والانخطاف في الرؤية والاسرار الخفية. كذلك هناك، ما بعد التجريد من كل الكائنات، وبالاحرى بعد توقف وجودها، الذي يتم فينا لا بالكلام فقط بل في الواقع، هناك بعد هذا التوقف عينه جهل (عدم معرفة)، ولكنه اكثر من معرفة. هناك سحابة ولكنها اكثر من ساطعة. وفي هذه السحابة الاكثر من ساطعة، بحسب ديونيسيوس العظيم، تعطى الإلهيات للقديسين (الرسالة A P.G. ٣،١٠٧٣). هكذا فإن المعاينة الكاملة جداً، معاينة الله والالهيات، ليست فقط تجريداً بل هي، ما بعد التجريد، مشاركة الالهيات، هي هبة وحيازة، اكثر من تجريد. ولكن هذه الحيازات والهبات لا ينطق بها: فإذا تكلمنا عنها نلجأ الى الصورة والتشبيه، ليس لانها ترى فقط بالصورة والتشبيه، بل لاننا لا نستطيع تبيان ما نراه بشكل آخر. فما دام الامر يتعلق بأشياء لا ينطق بها نعبّر عنها بالاستعارة. اما الذين لا يعيرون لها اذناً تقية فيحتسبون المعرفة التي تفوق كل حكمة بمثابة جنون. انهم، بقدحهم، يدوسون بأرجلهم اللآلىء المعقولة، فيُقتادون ايضاً الى ان يمزّقوا شفهياً من اظهروا لهم هذه اللآلىء، بقدر المستطاع.

اللاهوت التنزيهي صورة وحسب

١٩ ـ ان هؤلاء القديسين، كما سبق وقلت، يتكلمون، قدر المستطاع، عن امور لا ينطق بها محبة بالبشر، داحضين ضلال الذين يعتقدون في جهلهم انه ليس بعد التجريد من الكائنات سوى بطالة مطلقة، لا بطالة تفوق كل نشاط. ولكني اكرر ان هذه الامور تبقى اموراً لا توصف من جرّاء طبيعتها عينها. لذا يقول ديونيسيوس العظيم انه ليس من كلام بعد التجريد من الكائنات، بل « لا كلام». يقول ايضاً : «بعد ارتقائنا حتى النهاية سوف نتحدَ مع من لا يعبَر عنه» (في اللاهوت السرّي P.G. ٣,١٠٣٣ B). ولكن، رغم عدم امكان التعبير عنه، فالتنزيه وحده لا يكفي لبلوغ الذهن الى الامور الفائقة المعقولية. فالارتقاء بالتنزيه ليس سوى ادراك لما يبدو غير الله. انه لا يحمل سوى صورة المعاينة التي لا يعبّر عنها واكتمال الذهن في المعاينة. ليس هو هذا الاكتمال. ولكن الذين اتّحدوا بذلك النور، على غرار الملائكة، يسبحونه مستخدمين صورة هذا التجريد الكامل : فالاتحاد السّري مع النور يعلّمهم ان هذا النور يتعالى بصورة فائقة الجوهر على كل شيء. من جهة اخرى ان من يحسبون اهلاً لاقتبال السر لدى اولئك المسارّين، بإذن امينة ومتنبّهة، يستطيعون هم ايضاً تسبيح ذلك النور الالهي انطلاقاً من التجريد من كل شيء. ولكنهم لا يستطيعون الاتحاد به ومعاينته ما لم ينقّوا انفسهم بحفظ الوصايا وينقطعوا للصلاة النقية واللامادية لكي يتقبلوا قوة المعاينة الفائقة الطبيعة.

«اتحاد»، لا «معرفة»

٢٠ ـ كيف نسمي تلك القوة التي لا تخضع لا لعمل الحواس ولا لعمل العقل ؟ لن نسمّيها على كل حال خلافاً لسليمان الذي اعطي ان يفوق حكمة جميع الذين سبقوه فقال : انها «احساس عقلي والهي» (امثال ٢ : ٥ سبعينية). انه بجمعه هتين الصفتين معاً يُقنع سامعه بأن لا يعتبرها احساسا ولا ادراكا، لان عمل العقل ليس احساساً ولا الاحساس ادراكاً. «فالاحساس العقلي» يختلف اذا عن الاثنين وينبغي بالتالي تسميتها هكذا، او «اتحاداً» كما يسميها ديونيسيوس



العظيم، لكن لا «معرفة». فهو يقول : «يقتضي ان نعرف ان ذهننا يمتلك من جهةِ القوة العقلية التي تسمح له بأن يرى المعقولات، ومن جهة اخرى الاتحاد الذي يفوق طبيعة الذهن ويربطه بما يتعالى عليه» (في الاسماء الالهية ٧ : ١ C P.G. ٣,٨٦٥). وايضاً : «ان الملكات العقلية، وكذلك الاحاسيس، تصبح غير مجدية حين تصير النفس الهية الشكل فتستسلم لأشعة النور الذي لا يدنى منه في اتحاد لا يُعرف ووثبات عمياء» (في الاسماء الالهية ٤ : ٢) (٣,٧٠٨ D P.G.). وفي هذا الاتحاد المفعم بالإلهيات بحسب مكسيموس، «يلاحظ القديسون نور المجد الخفي والفائق الوصف فيصبحون هم ايضاً قادرين على اقتبال النقاوة المغبوطة مع القوات السماوية».

رؤية اللامنظور

٢١ ـ لا يُحسبنّ ان هؤلاء الرجال العظام يقصدون هنا الارتقاء بطريقة التنزيه ! فإن هذه الطريقة يطالها اي شخص اراد. وهي لا تغيّر النفس لتؤتيها كرامة الملائكة. انها تحرر العقل نسبةً للكائنات الأخرى، ولكنها لا تستطيع وحدها أن تُتحده بالمتعاليات. اما نقاوة جزء النفس الأهوائي فتحرّر الذهن من الكون فعلاً بتزويده باللاهوى. انها تُتحده عن طريق الصلاة بنعمة الروح القدس، وهذه تجعله يتمتع بالتألقات الالهية، فيكتسي الذهن بهيئة الملائكة وهيئة الله. ولذا فالآباء الذين اتوا بعد ديونيسيوس العظيم سمّوا ذلك «احساساً روحياً»، وهذا يطابق هذه المعاينة الميستيكية والخفية ويعبّر عنها اذا جاز القول بصورة افضل. فالمرء حينذاك لا يرى حقيقةً لا بالذهن ولا بالجسد بل بالروح. ويعلم بالتأكيد انه يعاين بصورة فائقة الطبيعة نوراً يفوق النور. ولكنه لا يعرف وقتئذٍ ما الذي يتيح له ان يعاين. بل لا يستطيع البحث عن طبيعته، لانه لا يستطيع اقتفاء آثار الروح. هذا ما قاله بولس لمّا سمع ما لا ينطق به وعاين ما لا يُرى. فإنه يقول «كنت ارى . . . لست اعلم أفي الجسد ام خارج الجسد» (انظر ٢ كو ١٢ : ٢). اي انه لم يكن يعلم ما الذي كان يريى، ذهنه ام جسده . فهو لا يرى بالاحساس، الا ان رؤيته واضحة كالرؤية

التي تسمح للإحساس بأن يرى الحسّيات بل اكثر وضوحاً منها. انه يرى ذاته قد خرج من ذاته، مختطفاً بالحلاوة السرية التي للرؤية خارج اي شيء واي فكر موضوعي بل خارج نفسه ايضاً. وبتأثير الاختطاف ينسى حتى الصلاة الى الله. هذا ما كان تكلم عنه القديس اسحق لمّا وجد ما يؤيده لدى غريغوريوس العظيم الالهي: «الصلاة هي تنقية الذهن التي يحدثها وحده - مع الرعب - نور الثالوث القدوس» (العظة ٣٢). وايضاً: «نقاوة الذهن هي ما يتيح لنور الثالوث القدوس ان يسطع وقت الصلاة. والذهن حينذاك يتخطّى الصلاة. ولا ينبغي ان نسمّي هذه الحالة صلاة بل ميلاد الصلاة النقية المرسلة من الروح القدس. الذهن حينذاك لا يصلي صلاة محدّدة، لكنه يكون مختطفاً في وسط الوقائع غير المدركة. انها عدم المعرفة التي تفوق المعرفة» (اسحق ٣٢). هذا الواقع الكثير البهجة الذي خطف بولس، واخرج ذهنه خارج كل خليقة، واعاده بجملته الى ذاته، يراه كنور، نور كشفٍ الهي، ولكنه لا يكشف اجساماً حسية، نور لا حدود له لا من فوق ولا من اسفل ولا من الجانبين. انه لا يرى اطلاقاً حدود معاينته وحدود النور الذي يضيئه، كما لو كان يرى شمساً اغزر نوراً واكبر من الكون بما لا حدّ له. وهو يقوم في الوسط، وقد تحوّل كله الى عين. تلك هي هذه الرؤية، على وجه التقريب.

رؤيا القديس بندكتوس

٢٢ - ولذا يقول مكاريوس العظيم ان ذلك النور لا حدّ له ويفوق السماوات. وقديس آخر، بين القديسين الاكثر كمالاً، رأى الكون كله شبه مغلّف بشعاع واحد من تلك الشمس المعقولة، وان كان هو ايضاً لم ير جوهر ما كان يرى، كما انه لم ير حدّه، بل فقط الحدّ الذي استطاع ان يجعل نفسه متقبلاً له. انه بهذه المعاينة، باتحاده الفائق المعقول بهذا النور، لم يدرك ماهية جوهره ولكنه ادرك انه موجود حقيقة، وانه فائق الطبيعة وفائق الجوهر، وانه مختلف عن سائر الكائنات، وان كيانه كيان مطلق وفريد وانه كان يجمع كل الكائنات في ذاته بصورة سرية. ان رؤية هذا «اللامحدود» رؤية دائمة ليست



لفرد ولا لجميع الناس معاً. ومن لا يرى يفهم مع ذلك انه هو الذي يعجز عن الرؤية، لانه لم يتطابق تماماً مع الروح القدس بتنقيته تنقية كاملة. فليس موضوع الرؤيا هو الذي يغيب. عندما تنحدر الرؤيا اليه يعرف جيداً، من الفرح المماثل للرؤيا وغير الانفعالي الذي ينبع فيه، ومن الهدوء الذي يحسّ به في ذهنه، ومن نار الحب الالهي الذي يشتعل فيه، يعرف جيداً انه فعلاً امام ذلك النور، وان كان يراه بشيء من الغموض. انه يستمر في التقدم، قياسياً، في الممارسات المرضية لله، وفي رفضه لكل ما عداها، وانكبابه على الصلاة وارتقاء نفسه الكامل نحو الله، وفي الوقت ذاته يختبر معاينةً اكثر تألقاً. فيفهم حينذاك ان رؤياه لا حدّ لها لانها هي «اللامحدود»، ولانه لا يرى حدود بهائها. ولكنه يرى بالاولى كم هي هزيلة طاقته لاقتبال النور.

«اكثر ـ من ـ الله»

٢٣ ـ ولكنه لا يعتبر ان الرؤيا التي أهّل لها هي هكذا طبيعة الله. فكما ان النفس تمد الجسد بالحياة (ونسمي هذه الحياة «نفساً» مع علمنا بأن النفس التي فينا والتي تمدّنا بالحياة تتميز عن تلك الحياة)، كذلك الله الذي يسكن في النفس الحاملة اياه يمدّها بالنور. ولكن اتحاد الاله الضابط الكل بالمستأهلين له يسمو على ذلك النور: «ان الله مع بقائه كله في ذاته يسكن كله فينا بقوته الفائقة الجوهر، ويمدّنا لا بطبيعته، بل بمجده وبهائه. فهذا النور هو بالتالي الهي، والقديسون يسمّونه بحق «ألوهة» (Divinité) لانه مصدر تأليه. فهو اذاً ليس «ألوهة» فقط بل «تأليه في ذاته» و «رئاسة الهية». انه يظهر كمغاير ومُكثِر للاله الاوحد. لكنه مع ذلك يبقى من هو «علة ـ الوهة»، «اكثر ـ من ـ الله» «واكثر ـ من ـ علة». انه الأوحد في الألوهة الواحدة. ولذا هو علّة ـ الوهة، أكثر ـ من ـ الله وأكثر ـ من ـ علّة. لان الله هو «وجود» تلك الالوهة، كما علّم معلمو الكنيسة، بعد ديونيسيوس الاريوباغي العظيم، بتسميتهم «ألوهة» الهبة المؤلِّهة الصادرة عن الله. عندما سأل غايوس

ديونيسيوس نفسه كيف يمكن ان يكون الله فوق الرئاسة الالهية أجابه في رسالته : «ان كنت تحتسب حقيقة الهبة المؤلّهة التي تؤلّهنا بمثابة «ألوهة»، واذا كانت هذه الهبة علة تأليه، فالذي هو فوق كل علة يتجاوز ما تسميه ألوهة على هذه الصورة» (الرسالة ٢ P.G. ٣,١٠٦٨ A) . ان الآباء يقولون اذاً ان النعمة الالهية، نعمة النور الفائق الحسّ، هي الله. ولكن الله في طبيعته لا يتطابق مع هذه النعمة وحسب، لانه يستطيع ليس فقط ان ينير الذهن ويؤلهه، بل ان يبرز من العدم اي جوهر عقلي.

ايليا في جبل حوريب

٢٤ ـ اترى ؟ فالذين يرون النور يعدّونه مع ذلك غير منظور، وذلك خيراً مما قد يفعله أبرع ذوي الخبرة في الحكمة الدنيوية. ان الذين ارتقوا الى هذه الدرجة من المعاينة يعرفون انهم انما يرون نوراً بحسّهم العقلي. يعرفون ان هذا النور هو الله الذي بنعمته جعل الذين يشتركون به نيّرين سرياً حين اتحادهم به. واذا سألتهم كيف يرون «اللامنظور» يجيبونك :« لا بأقوال تعلّمها حكمة انسانية بل بما يعلّمه الروح القدس» (١ كو ٢ : ١٣). فإنه لا ينقصهم شيء، لا يحتاجون الى قول بشري لان لهم تعليم الروح. «وفخرهم، كما يقول الرسول، انهم في بساطة واخلاص الله لا في حكمة جسدية تصرّفوا في العالم» (٢ كو ١ : ١٢). سيجيبونك اذاً بكل تقوى قائلين : «ان الالهيات، يا رجل،لا تحدّها معرفتنا، بل ان اشياء كثيرة نجهلها تصدر بالعكس عن الله. فإننا بالتالي، حسب الرسول نفسه، بمقارنتنا الروحيات بالروحيات (١ كو ٢ : ١٣) نثبّت نعمة العهد الجديد بناء على العهد القديم» . لقد سمى الرسول «مقارنة» هذه البرهنة المستندة الى اشياء قديمة، لاننا بعد «تثبيتنا» للاشياء الجديدة على هذه الصورة، نُظهر ايضاً ان مواهب النعمة اسمى من مواهب الشريعة. اذا سئل الذين يعيشون ويرون بالروح كيف يمكن معاينة الروح اللامنظور فسيجيبون : «كما رآها ايليا معاين الله. فالرداء الذي غطّى به وجهه يدل على انه لم يكن يرى حسياً، ومع ذلك فاللقب الذي يعترف به الجميع



له يشهد ويعلن جلياً انه فعلاً عاين الله، وان كان قد غطّى عينيه الحسّيتين بردائه. فكل الناس يدعونه «معاين الله»، بل «الأعظم بين معايني الله».

الرسم المسبق والحقيقة وسبق الحقيقة

٢٥ ـ واذا سئلوا ايضاً : « لماذا تقولون ان الصلاة ترنّ سرياً في احشائكم وما الذي يحرّك قلبكم؟» فسيُبرزون الزلزلة التي شعر بها ايليا والتي سبقت ظهور الله العقلي الواضح (٣ ملوك ١٩ : ١٢). وايضاً احشاء أشعيا التي ترنّ (أشعيا ١٦ : ١١). وان سئلوا ايضاً لماذا تحدث الصلاة فينا حرارة فسيذكرون النار التي عناها ايليا نفسه كعلامة من الله قبل ظهوره، علامة ستتحول ايضاً الى نسيم لطيف (٣ ملوك ١٩ : ١٢)، عندما توشك باتشاحها بالشعاع الالهي ان تدلّ على «اللامنظور» من يعاينه. وسيذكرون ايضاً ايليا الذي يظهر وهو حقيقةً مثل نار حين صعوداً بالجسد على مركبة نارية (٤ ملوك ٢ : ١١)، وسيذكرون ايضاً النبي الآخر الذي احترقت احشاؤه كما بنار : فكان كلام الله قد صار فيه كنار محرقة (انظر إرميا ٢٠ : ٨ ـ ٩). واذا اردت ان تقوم بمزيد من الاستقصاء عما يحدث فيهم سرياً فسوف يكشفون اشياء تكاد تكون مماثلة، مقارنين اياها، كما قلنا، بأشياء روحية ايضاً. سوف يقولون دوماً وللجميع : «الا تسمع يا رجل ان الانسان اكل من خبز الملائكة» (مز ٧٧ : ٢٥) ؟ الا تسمع الرب يقول انه سيعطي الروح القدس للذين يسألونه ليل نهار» (لو ١١ : ١٣ و ١٨ : ٧)» ؟ ما هو خبز الملائكة ؟ اليس هو النور الالهي الفائق السماوات الذي تتحد به الاذهان، حسب ديونيسيوس العظيم، إما مباشرة او بالاتصال، وذلك بصورة تسمو على الذهن ؟ لقد سبق الله ورسم انبجاس هذا النور للناس بإرساله منّ السماء خلال اربعين عاماً. وقد حققه المسيح بإرساله استنارة الروح القدس للذين يؤمنون به حقاً ويوضحون ايمانهم بأعمالهم، لمّا قدّم لهم جسده المنير طعاماً. وهذا كان ضماناً للاتحاد السري بيسوع فيما بعد. ولا عجب في ان احداث العهد القديم هذه قد سبقت فرسمت

نعماً اخرى للمسيح. افلا ترى اذاً ان هذه الاستنارات الرمزية تُظهر استنارة عقلية واسراراً غير سرّ المعرفة ؟

مقدمة المجيء الثاني

٢٦ ـ ما دام اولئك القوم الرافضون لنور النعمة الالهي يؤكدون، كما تقول، ان النور الظاهر في ثابور كان نوراً حسياً، سوف نسألهم اولاً هل يحتسبون الله ذلك النور الذي اضاء التلاميذ المختارين وقتئذٍ ؟. لانهم ان كانوا لا يحتسبونه الله فبطرس سوف يثبت عليهم خطأهم : فإنه، بحسب انجيل مرقس، سهر على الجبل وعاين مجد المسيح (مر ٩ : ٢ ـ ٨). وفي رسالته الثانية كتب انه «عاين عظمته عندما كان معه في الجبل المقدس» (٢ بط ١ : ١٦ و١٨). ثم ان مفسّر الكرازات الانجيلية الذهبي اللسان سيسكتهم جلياً اذ يقول : «لقد بدا الرب اكثر تألّقاً، جسده على هيئته ولكن الالوهة مبديةً اشعتها». اخيراً سوف يفحمهم نهائياً ديونيسيوس العظيم الذي يسمي هذا الحدث بوضوح «ظهور الله» و «معاينة الله» (في الاسماء الالهية ١ : ٤ P.G. ٣,٥٩٢ C). بالاضافة الى ذلك غريغوريوس الملقّب باللاهوتي يقول : «ان الالوهة التي ظهرت للتلاميذ على الجبل كانت نوراً» (العظة ٤٠ : ٦ P.G. ٣٦,٣٦٥ A). واخيراً ان سمعان، الذي اشاد بلغته الجميلة بسيرة معظم القديسين، يكتب مع آخرين كثيرين ان اللاهوتي الذي كان يسوع يحبه «رأى على الجبل الوهة الكلمة عينها مكشوفة». ولكن ان كان هؤلاء القوم يسمّون هذا النور الظاهر «نوراً الهياً» و «نور الله»، وفقاً للحقيقة ولمفسّري الحقيقة، فسوف يوافقون بالضرورة على القول بأن معاينة الله الكاملة الخالصة هي مثل نور. ولذا عاينه ايضاً هكذا موسى وسائر الانبياء تقريباً، خاصة الذين ظهر لهم في اليقظة لا في الحلم. ولكن فليكن : ان كل رؤى الانبياء المقدسة كان لها طابع الرمز ما دام معارضونا يريدون ذلك. الا ان الرؤيا المعلنة للرسل على ثابور لم تكن نوراً رمزياً يظهر ثم يغيب. اذ له قيمة مجيء المسيح الثاني المزمع : فهذا النور نفسه سوف يضيء أبدياً المتأهلين له،في الدهر الذي لا نهاية له،



على حدّ قول ديونيسيوس الالهي. ولذا يقول عنه باسيليوس الكبير انه بمثابة مقدمةٍ لذلك المجيء الثاني (في التعليق على المزمور ٤٤ P.G. ٢٩,٤٠٠ CD). والرب في الاناجيل يسميه «ملكوت الله» (متى ١٦ : ٢٨ ومر ٩ : ١ ولو ٩ : ٢٧).

ليس النور الالهي نوراً حسياً

٢٧ - فلماذا يعترضون على القول بأن القديسين يعاينون الله سرياً مثل نور، في حين ان هذه المعاينة، الآن وفي الدهر الآتي، هي مثل نور؟ هل لان هؤلاء القديسين لا يقولون بأن هذا النور حسّي بل يسمونه «عقلياً» كما يسمي سليمان الروح القدس؟ (الحكمة ٧ : ٢٢). وهؤلاء انفسهم يفترون على القديسين: فيقولون انهم يدّعون معاينة نور حسّي اثناء الصلاة! ويقاومون في الوقت نفسه جميع الذين يقرّون بوجود عنصر حسي في المواهب الالهية؟ فكيف يقدرون، والحالة هذه، ناسين ذواتهم، ان يوسعوا لوماً من يقولون بأن النور الالهي ليس حسياً؟ هل ترى تناقضهم وتقلّبهم؟ يبدون اقوياء في الافتراء ولكن لا في تبيّن الخير! ولكن فليجيبوا، وهم مفسّرو ظهورات النور القديمة والجديدة المعصومون عن الخطأ: لو اتفق حضور حيوان غير ناطق على الجبل آنذاك هل كان قد احسّ بذلك البهاء الاكثر ضياء من الشمس؟ لا اظن. اذ لم يرد ان القطعان قد احسوا بمجد الرب الذي انار الرعاة عند ميلاد المسيح (لو ٢ : ٨ - ١٠). فكيف يكون هذا النور حسياً؟ فإن عيون الحيوانات غير الناطقة، الحاضرة والمفتّحة، التي ترى الاشياء الحسية عادياً، لا تراه عندما يضيئها! اما ان كانت عيون البشر الحسية هي التي رأته فلم تره الا بقدر اختلافها عن العيون غيرالعاقلة. فبمَ كانت تختلف عنها؟ بشيء واحد: بالذهن الذي يرى من خلال العيون البشرية. لم يكن الامر اذاً امر ملكة حسية، والا فلربما كانت الكائنات غير العاقلة ايضاً قد رأت النور. هل كان الامر امر ملكة عقلية تدرك النور من خلال الحواس؟ كلاّ. لم يكن الامر امر مثل هذه الملكة، والا فأية عين كانت قد رأته يلمع اشدّ من الشمس، وخاصة

عـيون الذين في الجـوار؟. اذاً ان لـم تكن تلك الملـكة هي التي اتاحـت للرسل معـاينة النور فلم يكن هذا النور نوراً حسياً، بحصر المعنى. من جهـة اخرى ليس من شيء حسّي ابدياً، ولكن نور الالوهة، الذي كـثيراً مـا يسمّى «مجـد الله»، لا بداية له ولا نـهاية. فهو اذاً غير حسّي.

هل لواقع حسّي ان يكون غير مخلوق ؟

٢٨ ـ ليس هذا النور نوراً حسياً وان أهّل الرسل لمعـاينته بعيونـهم، ولكن بقـوة اخرى غيـر قـوة الحواس. ولذا يقـول جـميـع اللاهوتيين ان ضـيـاء وجـه يسوع كان ضـيـاء لا يوصـف ولا يدنى منه وغـيـر زمـني، لأن الامـر كان امـر واقع سرّي، وان ذلك الضياء لم يكن، بحـصـر المعنى، في مـتناول الحواس. على هذا المنوال هو امـر النور مـقـرّ القديـسين، حين يرحلون من هنا ليـحظوا بالنصيـبب المحفـوظ لـهم في السماء، حيث النور الذي ليس ذلك الضـيـاء سوى مقدمة له، ذلك النور الذي يعطى للقديسين منذ هذا الدهر بمثابة عربون. وان كـان ذلك كـله يسمّى «نوراً»، ويبـدو انه يصـيـر احـيـاناً في مـتـناول الحـواس بصـورة غـريبـة، فالامـر يبـقى امـر واقع يسمـو على الذهن نفسـه، ويبـقى ان التسميات التي نسميه بهـا هي بعيدة عن الحـقيقة. فـكيف يمكن ان يكون الامر امـر اشـيـاء حسـية، بحـصـر مـعنى الكلمـة ؟ من جهـة اخرى عندمـا نقيم صـلاة الموتى نصرخ دومـاً الى الصلاح ذي الرئاسة الالـهية قائلين : «رتبـهم في مكان نيّر». فـما ترى حاجـة النفوس الى نور حسي ؟ لمَ قد تكتئب للظلمات المنافـية لهذا النـور اذا كانت ظلمات حـسـيـة ؟ اما تُرى ان لا شيء من هذه الاشـياء يقع في مجال الحواس ؟ وقد ابنّا اعلاه، عندما اتينا على ذكر النار المدلهمّة المعدة لجنس الشـيـاطين، ان الامـر ايضـاً ليس مجـرد امـر جـهل او مـعـرفة. فـمـا كـان ينبـغي اذاً الكلام عن ظهـور يسوع الـسري والنيّر على جـبل ثابور بالاسـتـعـانـة باسـتـدلالات دنيا، أعني باستدلالات بشـرية وافكار متقلّبة، بل كـان يجب طاعة صـوت الآباء وانتظار المعـرفـة الصـائبـة الـتـي تحلّ في نقـاوة القلب بالخـبـرة. فـهذه المعرفة تُتم الاتحـاد بذلك النور وتعلّم سرياً من يجـدونـها ان هذا النـور لا

يمكن ان يمثّل بأي كائن، لانه يسمو على سائر الكائنات. فكيف نقدر ان نحتسب حسياً ما يسمو على سائر الكائنات ؟ اي كائن حسي ليس مخلوقاً ؟ كيف يكون ضياء الله مخلوقاً ؟ فهذا النور اذاً ليس، بحصر المعنى، حسياً.

... او ان يكون سماوياً ؟

٢٩ ـ يقول مكاريوس العظيم : «عندما تعود النفس كالابن الشاطر الى الله سيدها وابيها، بخوف ومحبة وحياء، يتقبّلها الله، دون ان يذكر مخالفاتها، ويلبسها حلّة مجيدة (ابن سيراخ ٤٥ : ٧)، حلّة نور المسيح». هل هناك مجد آخر ونور آخر للمسيح خارج النور الذي عاينه بطرس في اليقظة «عندما كان معه على الجبل المقدس» ؟(٢ بط ١ : ١٦ ـ ١٨). كيف يصبح حلّة للنفس لو كان حسياً ؟ وهذا اللاهوتي نفسه يقول في موضع آخر : «هذا النور يفوق السماوات» (De libertate mentis ٢١، P.G. ٣٤,٩٥٦ A). هل من كائن حسي يفوق السماوات ؟ ويقول ايضاً في مكان آخر : «لقد اجلس الرب مركَّب الطبيعة البشرية، الذي اتخذه، عن يمين الجلال الالهي في السماوات (انظر عب ١ : ٣) في مجد كامل ليس فقط على الوجه مثل موسى بل على الجسد كله». هل يسطع فيه باطلاً ان كان لا احد يتقبل هذا النور ؟ نعم باطلاً ان كان هذا النور حسياً. اليس هو حقيقةً طعام الارواح، طعام الملائكة والابرار ؟ لذلك نقول للمسيح في صلاتنا للموتى «ان يرتب نفوسهم حيث يشرق نور وجهه». كيف تكون النفوس في الفرح وكيف ـ لنقل كل شيء ـ كيف تقدر ان تسكن في وسط نور يسطع حسياً ؟ ان باسيليوس الكبير يقول من جهته انه حين ظهور المعلم بالجسد فالناس الانقياء القلوب «سوف يعاينون ابدياً تلك القوة التي يصدر بهاؤها من الجسد المسجود له». كيف يكون حسياً ذلك النور الذي نعاينه بنقاوة القلب ؟ «كانت هيئة المسيح على الجبل هيئة نور لا نهاية له» بحسب كوزما المرنّم الالهي (القانون الاول لعيد التجلي). فكيف لنور حسي ان يكون لا نهاية له ؟

رؤيا استفانس

٣٠ ـ واستفانوس اول من شهد للمسيح بعد المسيح «شخص الى السماء ورأى السماوات مفتوحة، ورأى فيها ايضاً مجد الله والمسيح قائماً عن يمين الله» (انظر اعمال ٧ : ٥٥ ـ ٥٦). فهل بالامكان الوصول الى الحقائق الفائقة السماء بواسطة ملكاتنا الحسية ؟ ولكن هذا الرجل كان يراها، مع انه كان هنا على الارض. وما هو اعجب من ذلك انه لم يكن يرى المسيح فقط بل اباه ايضاً. اذ كيف استطاع ان يرى المسيح عن يمينه ان لم يكن قد رآه هو ايضاً ؟ فاللامنظور يدع انقياء القلوب ينظرونه، كما ترى، ولكن لا بطريقة حسية ولا عقلية ولا تنزيهية، بل بقوة لا ينطق بها، لان جلال الآب الاسمى ومجده لا يمكن بشكل من الاشكال ان يكونا في متناول الحواس. من جهة ثانية فإن ما كان رمزياً هو القيام عن اليمين لا الرؤيا. وان كان هذا القيام عينه ليس سوى رمز لمن هو ثابت لا يتغير، رمز لقوام الطبيعة الالهية غير القابلة للتغيير اطلاقاً، فاستفانوس عاين فعلاً بصورة لا ينطق بها ما كانت عليه. لان القيام عن اليمين لم يكن خدعة من الابن الوحيد قصد بها اظهار حقيقة تختلف عنه، ولكنه، وهو قائم عن يمين الآب، اراد ان يكشف مجده لمن كان لا يزال في الجسد، الا انه تخلّى عن نفسه عينها لاجل هذا المجد . بالتنزيه لا نقدر لا ان نرى ولا ان نتصور، في حين ان استفانوس عاين مجد الله. لو كانت هذه الرؤيا رؤيا معقولة، لو كانت نتيجة استنتاج او قياس، لكان هذا يعني اننا نحن ايضاً نرى مثله، لاننا نحن ايضاً نقدر ان نتصور بطريق القياس ان الله المتأنس قائم او جالس عن يمين الجلال الالهي. ولماذا لم تحصل هذه الرؤيا قبلاً وعلى الدوام في ذهن تلميذ الانجيل ؟ لماذا ادركها فقط في ذلك الوقت ؟ اذ يقول : «هاءنذا ارى السماوات مفتوحة وابن البشر قائماً عن يمين الله». اية حاجة اوجبت ان يشخص الى السماء وان تنفتح السماء لو كانت هذه الرؤيا معرفةً مكتسبةً عقلياً لا غير ؟ كيف رأى اول الشهداء هذه الرؤيا ان كان لم يرها لا عقلياً ولا حسياً ولا تنزيهياً، وان كان لم يتصور الالهيات لا بالاستنتاج ولا بالقياس ؟سأتجرأ واقولها لك : لقد رآها بالروح، كما قلت سابقاً بصدد الذين يرون النور النقي عن طريق الكشف. وقد قالها قبلي آباء كثيرون.



ولوقا الالهي من جهة اخرى يعلّم ذلك ايضاً بقوله : «ان استفانوس الممتلىء من الايمان والروح القدس شخص الى السماوات ورأى مجد الله». وانت ايضاً اذا امتلأت من الايمان والروح القدس تستطيع ان تعاين روحياً ما لا يبصره الذهن عينه. اما اذا بقيت خالي الايمان كلياً فلن تصدق حتى الذين يشهدون انهم ابصروه. لانك ان كان لك ايمان، ولو ضعيف، لكنت تستمع بورع الى الذين يحدّثونك عن الاسرار عن خبرة، قدر المستطاع. ولكنت لا تحطّ هذه الاسرار الى رتبة الحسيات او المعقولات، (حتى ان كانت هذه الالفاظ تطبّق عليها)، مكافحاً بذلك ضد الحقيقة وحاسباً اياها ضلالاً، ولكنت لا ترفض نعمة الله السرية المعطاة لنا.

الجسد ايضاً يتقبل النعمة

٣١ ـ فتلك هي المعاينة التي يدعوها الآباء المعاينة «الحقيقية بوجه خاص»، تلك هي القوة التي تعطيها الصلاة للقلب، ذانك هما الدفء والفرح الروحيان الناتجان عنها، تلك هي الدموع البهجة التي تمنحنا اياها النعمة. ومصدر كل ذلك يُكتسب جوهرياً بواسطة الحواس العقلية. أقول «الحواس» لان الادراك الحسي هنا بيّن جليّ خالٍ من الخطأ، لا صلة له بالمخيّلة. من جهة اخرى فالجسد هو ايضاً يشترك بصورة ما بالنعمة الفاعلة روحياً : انه ينسجم معها فيحسّ هو ايضاً بالسرّ الخفي الحاصل في النفس. ينقل للناظرين، الذين يشاهدون بحواسهم من الخارج من يقتنون النعمة آنذاك، ادراكاً معيناً لما يحدث في هؤلاء. هكذا لمع وجه موسى لان بهاء ذهنه الداخلي فاض على جسده ايضاً، فتألق لدرجة ان وفرة الضياء كانت تمنع مشاهديه حسياً من الشخوص اليه (خروج ٣٤ : ٣٤ و ٣٥). وهكذا ظهر وجه استفانوس الحسي كوجه ملاك (اعمال ٦ : ١٥). فقد تقبّل ذهنه داخلياً هيئة ملائكية لانه تشبّه بالملائكة واقتنى ما هو خاص بهم باشتراكه سرّيا، مباشرة او بالاتصال، بالنور المتسامي على الكون. وهكذا مريم المصرية، بل

مريم السماوية، ارتفعت بصلاتها جسدياً في الهواء، بصورة حسية، منتقلة فعلاً من مكان الى مكان. فعندما ارتفع ذهنها ارتفع جسدها ايضاً، واذ غادر الارض بدا كجسد هوائي.

الحب الالهي

٣٢ ـ هكذا عندما تجذل النفس وكأن الحب الذي لا يقاوم، حب المشتهى الوحيد، يحرّكها، يتحرك القلب ايضاً، دالاً بوثبات روحية على انه يشترك بالنعمة، وكأنه يقفز من هذه الدنيا للقاء الرب، يوم سيأتي بجسده في السحب كما وعد (متى ٢٤ : ٣٠ ومر ١٣ : ٢٦ ولو ٢١ : ٢٧ وأع ١ : ٢). هكذا في الصلاة الدائمة، عند اقبال النار المعقولة، عند استضاءة المصباح المعقول، وعندما، بالمعاينة الروحية، يوقظ الذهن الحب لهباً لطيفاً، فالجسد هو ايضاً يصبح خفيفاً وساخناً بصورة غريبة. ويبدو لناظريه كأنه خارج من نار اتون حسي، بحسب الذي وصف الصعود الروحي (السلّم الى الله، المقالة ٢٨). اما انا فأعتقد ان عرق المسيح، اثناء صلاته (لو ٢٢ : ٤٤) هو ايضاً علامة للحرارة الحسية التي يستطيع وحده التضرع الدائم الى الله احداثها في الجسد. فبماذا يجيب الذين يصرّحون بأن الحرارة التي تحدثها الصلاة هي ذات مصدر شيطاني ؟ هل يعلّمون تجنّب الصلاة الملتهبة والدائمة لكي لا يتقبّل الجسد، بقدر نضال النفس، الحرارة التي يريدون حظرها ؟ فليعلّموا اذاً صلاةً لا تقود الانسان الى الله، ولا الى التشبه بالله، ولا تغيّره ليتحسّن ! اما نحن فنعلم اننا بقبولنا الطوعي لألم النسك، قد نبذنا الفرح الذي كنّا آثرناه، وا أسفاه، بعد انتهاك الوصية، واننا اثناء الصلاة نذوق، بحواسنا العقلية، الفرح الالهي الخالي من اي الم. ان النبي الذي خبر هذا الفرح الذي، ويا للعجب، نقل الجسد عينه ليجعله متقبّلاً للحب الالهي اللاانفعالي يصرخ امام الله : «ما اعذب كلماتك لحلقي فهي احلى من العسل لفمي» (مز ١١٨ : ١٠٣)، وايضاً : «فتتشبع نفسي كما من شحم ودسم وبشفاه الابتهاج يسبّحك فمي» (مز ٦٢ : ٥). مع هذا الفرح وبه تشترك امكانات الارتقاء القائمة في القلب «بالغبطة الالهية»



و«اللذة» الملائكية «بورود الضياءات الالهية وروداً مؤلِّهاً» كما قال ديونيسيوس العظيم (في الارضية السماوية P.G. ٣,٣٤٠ A ٩,١٥).

تغيير الجسد

٣٣ - ان الحزن الالهي المنقّي لا يعتلن فقط في نفس المجاهدين الروحيين بل ينتقل ايضاً الى الجسد والى حساسية الجسد : فالدموع الموجعة، التي يسكبها الذين يحسّون بهذا الوجع بسبب خطيتهم، هي البرهان الجليّ على ذلك. فلماذا لا نتقبّل بالورع نفسه علامات الفرح الروحي الالهي، تلك العلامات البادية لحواس الجسد الضعيفة ؟ اليس من اجل ذلك يقول الرب أنْ : «طوبى للحزانى فإنهم يعزّون» (متى ٥ : ٤)، اي يقتبلون الفرح ثمر الروح ؟ ولكن الجسد يشترك هو ايضاً في هذه التعزية بطرق مختلفة. والذين خبروها يعرفون ذلك. من جهة اخرى، ان اخلاق هؤلاء ودموعهم العذبة، ومحادثاتهم مع قاصديهم المفعمة بالمواهب، تُظهر ذلك حتى للذين ينظرون من الخارج، كما ورد في نشيد الأنشاد : «شفتاكِ تقطران شهداً ايتها العروس» (انظر نشيد الانشاد ٤ : ٣). فالنفس لا تتلقى وحدها عربون الخيرات المستقبلة : الجسد يتلقاه ايضاً، هو الذي لهذه الغاية يرافقها في مسيرة الانجيل. من قال غير ذلك نفى ايضاً حياة الجسد في الدهر الآتي. ان صحّ ان الجسد سيشترك يوماً في الخيرات السرية، فإنه يستطيع الآن ايضاً الاشتراك فيها، تبعاً لطبيعته، حين يمنح الله النعمة للذهن. ولذا نقول ان الحواس تتقبل هذه النعم، ولكننا نضيف «الحواس العقلية»، لانها تسمو على الحواس الطبيعية. لان الذهن يتلقاها اولاً اذ يرتقي نحو «الذهن الاول» ويشترك به الهياً، قدر امكانه، متحولاً وبذلك محوّلاً الجسد المرتبط به ليجعله الهياً اكثر، مبيناً وراسماً هكذا ابتلاع الروح للجسد في الدهر الآتي. لا عيون الجسد بل عيون النفس تتلقى قوة الروح التي تتيح معاينة هذه الاشياء. وبالتالي نسمّي هذه القوة قوة «عقلية»، وان كانت تفوق العقل.

خبرتنا لله

٣٤ ـ من جهة اخرى سنثني سامعينا عن احتساب تلك القوى الروحية والسرية قوى مادية وجسدية. اذ ان اولئك القوم هم ضحية هذا الاعتقاد. انهم بآذانهم النجسة الرجسة، وفكرهم غير العارف ان يؤمن ولا ان يخضع لاقوال الآباء، لم يتقبلوا قط تعليم القديسين بورع ! داسوه بأرجلهم وهاجوا ضد الذين فسّروه لهم. لم يصدقوا مكاريوس العظيم بل قد لا يعرفون انه يقول : «ليست الروحيات في متناول العادمي الخبرة، اما شركة الروح القدس فتستطيع ان تتقبلها النفس القديسة الامينة. ان كنوز الروح السماوية لا تنكشف الا لمن يتقبّلها بالخبرة، في حين ان غير المسار لا يقدر حتى ان يتصوّرها». ان كلامه هذا عنهم في غاية الورع ! استمع اليه انت لكي يبلغك الايمان وتؤهل لتتلقّى هذه الكنوز ! وعندئذٍ تكشف لك خبرة عيني نفسك ذاتها مدى الخيرات والاسرار التي تستطيع نفوس المسيحيين ان تشترك بها منذ هذا الدهر. ولكنك حين تسمع الكلام عن «عيني النفس» اللتين تختبران تلك الكنوز السماوية، لا تخلط بينهما وبين «العقل». فإن هذا يزاول ملكاته على الحسّيات والعقليات معاً. ولكن فكّرْ بمدينة لم ترها بعد : فلا خبرة لك عنها لمجرد التفكير بها. هكذا ان مجرد التفكير بالله والكلام عنه وعن الالهيات لا يكسبك خبرة. ان كنت لا تقتني ذهباً بصورة حسية، ان كنت لا تمسكه في يديك حسياً، ان كنت لا تراه بعينيك الحسيتين، فأنت لا تمسكه ولا تراه ولا تقتنيه، حتى وان مرّت فكرة الذهب ببالك الف مرة. على هذا المنوال انه حتى ولو فكرت عشرة آلاف مرة بالكنوز الالهية، دون ان تختبر الالهيات ودون ان تراها بعينيك العقليتين اللتين تتساميان على العقل، لا يكون لك شيء ولا تقتني حقيقةً اي شيء منها. لقد تكلمتُ عن «عيون عقلية»، اذ فيها تحلّ قوة الروح التي تسمح برؤية هذه الامور : مع ان هذه الرؤية الكلية القداسة للنور الالهي جداً والاكثر من منير تتسامى على العيون العقلية.



نور الدهر الآتي

٣٥ ـ لذلك لم يدعُ الرب كل تلاميذه بل تلاميذ مختارين الى تلك الرؤيا الروحية التي حصلت على جبل ثابور، والتي لا توصف ولا ترى بالملكات الحسية. ان ديونيسيوس الاريوباغي العظيم يقول اننا في الدهر الآتي سوف نستنير «بظهور المسيح المنظور كما استنار التلاميذ عند التجلي. ولكننا سنشترك في هذا النور المعقول بذهننا بعد ان يكون قد اصبح لا انفعالياً ولا هيولياً، وسنشارك في الاتحاد الفائق العقل بمماثلتنا الالهية اكثر فأكثر للاذهان الفائقة السماوات» (في الاسماء الإلهية ١ : ٤ P.G. ٣,٥٩٢ C). ولكننا، حتى في ذلك الحين، لن نصل الى ان نتصور الضياء الساطع لهذا الجسد المسجود له ضياءً حسياً، تدركه الاعضاء الحسية المجردة من قوة نفسٍ عاقلة : فهذه القوة وحدها تستطيع تقبّل قوة الروح القدس، الذي يجعلنا بدوره نعاين نور النعمَة. ان الضياء الذي تحسّ به تلك الاعضاء الحسية ليس حسياً على الاطلاق. وقد بيّنه القديس نفسه هنا لذوي الاذهان. لاننا كما يقول سنستنير بذلك النور في الدهر الآتي،حيث لا حاجة الى نور ولا الى هواء ولا الى شيء من هذه الحياة الحاضرة. ان الاسفار الملهمة من الله تعلّمنا ذلك اذ يقول الرسول : «الله يكون الكل في الكل» حينذاك (١ كو ١٥ : ٢٨). فلن نحتاج الى نور حسي لانه ان كان الله كل شيء لنا فالنور ايضاً سيكون الهياً. فكيف يمكن ان يكون حسياً، بحصر المعنى ؟ ان كون القديس اضاف «اننا نصير مماثلين للملائكة بصورة الهية اكثر فأكثر»، مع امكان الكلام عن النور بثلاثة طرق، يدل على ان الملائكة يتقبلون ايضاً هذا النور. كيف يكون ذلك لو كان نوراً حسياً ؟ فإن كان حسياً يكون منظوراً من خلال الهواء. وسنرى، اذاً، النور بصورة واضحة او غير واضحة ليس على قياس فضيلة كل احد والنقاوة الناتجة عنها، بل على قياس نقاوة الهواء ! «يضيء الابرار كالشمس في ملكوت السموات» (متى ١٣ : ٤٣) : سيبدو كل منهم اكثر او اقل ضياء ليس تبعاً لاعماله الحسنة بل لنقاوة الهواء المحيط به ! علاوة على ذلك ستكون خيرات الدهر الآتي في متناول عيون الحواس منذ الآن والى الابد، تلك الخيرات التي

ليس فقط «لم ترها عين ولا سمعت بها اذن» بل «لم تخطر على قلب انسان» (١ كو ٢ : ٩)، الانسان الذي يحاول الولوج الى اللامدركات بطرق المحاكمة العقلية. هلاّ يكون النور منظوراً للخطأة ما دام حسياً ؟ ام سيكون هناك حينذاك، حسب اولئك القوم، سدّ وظلال ومخاريط ومقارنات فلكية تُحدث كسوفات ودورات نورانية ذات هيئات مختلفة ؟ هل نحتاج الى عمل الفلكيين الباطل في حياة الدهور التي لا نهاية لها ؟.

اجساد روحية

٣٦ ـ ولكن كيف ستدرك الحواس الجسدية نوراً ليس حسياً، بحصر المعنى؟ ستدركه بقوة الروح القادر على كل شيء، القوة التي بها عاينه ايضاً الرسل المختارون على جبل ثابور، حين كان يفيض ليس فقط من الجسد الحامل الابن، بل ايضاً من السحابة الحاملة الآب. من جهة اخرى في الدهر الآتي سيكون الجسد ايضاً «روحانياً» لا «نفسانياً» حيوانياً بشرياً بعد، حسب قول الرسول : «يزرع حيوانياً ويقام روحانياً» (١ كو ١٥ : ٤٤). ولانه يكون روحانياً ويَرى بطريقة روحانية سوف يعاين الشعاع الالهي. اننا نستطيع اليوم ان نرى فعلاً ان لنا نفساً عقلية ذات وجود خاص بها في هذا الجسم الكثيف، المائت والصلب الذي يُخفيها ويحطها، ويجعلها مشابهة كلياً للجسد ومائلة الى التوهم. لذلك لا نعرف الاحساس العقلي عن طريق الذهن. على غرار ذلك فإن الجسد الكلي الغبطة في الدهر الآتي هو الذي سيكون كمخفّي عند «ابناء القيامة» (لو ٢٠ : ٣٦)، الذين يكونون قد نالوا كرامة ملائكية حسب انجيل المسيح (متى ٢٢ : ٣٠ ومرقس ١٢ : ٢٥ ولوقا : ٢٠ : ٣٦). وبانتصار الذهن سيصبح الجسد لطيفاً لدرجة انه لن يبدو ابداً مادياً ولن يقاوم القوى العقلية فيما بعد. ولذا سيتمتّعون بالنور الالهي بحواسهم الجسدية عينها.



تأليه اخيري

٣٧ ـ ولماذا تكلمتُ فقط عن القرابة التي ستقوم حينذاك بين الجسد والطبيعة العقلية ؟ فالقديس مكسيموس يقول : «ان النفس، باشتراكهابالنعمة الالهية، تصبح الله، بعد ان تكون قد اوقفت كل نشاط للذهن والحواس كما لقوى الجسد الطبيعية. لان الجسد يتأله معها، مشتركاً بالتأله بالطريقة التي تلائمه. وحينئذٍ الله وحده يتراءى في النفس وفي الجسد، لان مميزات طبيعتهما قد غُلبت بفيض المجد» (المئوية العرفانية P.G. × C, ١١٦٨ A ٨٨,٢). فإنه اذاً، كما قلت في البدء، هو غير منظور للكائنات، الا انه ليس غير منظور لنفسه. ولكنه، ويا للعجب، الذي سينظر حينئذٍ ليس فقط عن طريق النفس التي فينا بل عن طريق الجسد ايضاً. لذا سنعاين حينئذٍ بوضوح، بأعضائنا الجسدية نفسها، النور الالهي الذي لا يُدنى منه. وقد كان عربوناً ومقدمةً لسخاء الله الذي ينتظرنا في المستقبل الذي اعلنه المسيح للرسل بصورة لا ينطق بها على جبل ثابور. فكيف يمكن القول بأن شعاع الالوهة الذي يتجاوز كل كلام وكل رؤية يمتّ لنطاق الحسيات ؟ افهمت الآن ان النور الذي انار الرسل على ثابور لم يكن حسياً، بحصر معنى الكلمة ؟

اجسادنا تشارك جسد المسيح

٣٨ ـ ولكن ما دام هذا النور الالهي المتجاوز كل احساس قد تجلّى لعيون حسية ـ وكان الامر كذلك : فمناقضو الرجال الروحيين انفسهم يعترفون به وهم على وفاق مع انفسهم ومعنا في هذا الصدد ـ ما دام هذا النور الالهي قد تجلّى لعيون حسية، لمَ قد لا يتجلى ايضاً لعيون عقلية ؟ هل تكون النفس شيئاً رديئاً، غير قادرة ان تتحد «بالخير» وتحسّ به ؟ لم يقل هذا يوماً اي هرطوقي وقح ! هل تكون شيئاً صالحاً والجسد شيئاً افضل منها ؟ اذ كيف لا تكون النفس ادنى من الجسد ما دام الجسد قادراً ان يشترك بنور الله، ويلتصق به في حين ان النفس غير قادرة على ذلك ؟ اليس هذا الجسد المادي المائت أليفاً مع الله

ومخلصاً له اكثر من النفس واقرب اليه منها، ما دامت ترى الله في النور بواسطته هو، لا العكس ؟ ولكن ما دام تجلي الرب على ثابور كان مقدمة لتجليه المنظور في المجد المقبل، ما دام الرسل أهّلوا لمعاينته بعيون اجسادهم، لماذا قد لا يعاين ايضاً انقياء القلوب بعيون نفوسهم مقدّمة ظهوره بالروح وعربونه ؟ ولكن ما دام ابن الله، في محبته للبشر التي لا مثيل لها، لم يقتصر على اتحاد اقنومه الالهي بطبيعتنا، باتخاذه جسداً حياً ونفساً ذات ذهن، لكي «يُرى على الارض ويعيش بين البشر» (باروك ٣ : ٣٨)، بل اتحد، ويا له من عجب غزير فريد، بالاقانيم البشرية نفسها ممتزجاً مع كل من المؤمنين بمناولة جسده المقدس، اذ يصبح معنا جسداً واحداً ويجعلنا هياكل للالوهة بكاملها - لانه في جسد المسيح «يحلّ كل ملء اللاهوت جسدياً» (كو ٢ : ٩) - كيف لا ينير الذين يشتركون باستحقاق بالشعاع الالهي، شعاع جسده الذي فينا، مضيئاً نفوسهم، كما انار اجساد التلاميذ انفسها على جبل ثابور ؟ فإن هذا الجسد، منبع نور النعمة، لم يكن بعد متحداً بأجسادنا : كان ينير من الخارج الذين يدنون منه باستحقاق، ويرسل الاستنارة الى النفس بواسطة العيون الحسية. ولكنه اليوم، ما دام ممتزجاً بنا وقائماً فينا، فهو ينير النفس من الداخل.

خبرة حقيقية

٣٩ - ماذا ؟ ألعلّنا لن نعاين في الدهر الآتي «اللامنظور» «وجهاً لوجه» كما هو مكتوب ؟ (١ كو ١٣ : ١٢). فأنقياء القلوب يتلقون، اذاً، منذ الآن عربوناً له ومقدمة، ويعاينون حسياً رسمه العقلي وغير المنظور القائم في داخلهم. لان الذهن طبيعة لاهيولية. يمكن القول بأنه نور «قريب» للنور الاول والاسمى، الذي تشترك فيه كل الاشياء، مع كونه متعالياً على كل شيء. عندما يرتقي الذهن نهائياً الى الله، في نزوع كلي نحو النور الحقيقي، في صلاة لاهيولية وغير منقطعة ونقية، عندما يتغير الذهن هكذا ليقتني منذ الآن الكرامة الملائكية، مستنيراً بالنور الاول عينه على غرار الملائكة، يبدو حينئذٍ وكأنه،

بالمشاركة، ما هو النموذج الاول كعلّة، فيكشف في ذاته عن بهاء الجمال الخفي، وضيائه الساطع الذي لا يدنى منه. ان داود المرنم الالهي، اذ احسّ عقلياً بهذا الضياء فيه، كان يبتهج ويرشد المؤمنين الى هذا الضياء العظيم والسري: «ليكن بهاء الرب الهنا علينا» (مز ٨٩ : ١٧). ان كنا لا نحس، ان كنا لا نرى في ذواتنا بهاء الله، وان كنا، علاوة على ذلك، نبحث عنه عن طريق التمييزات والمحاكمات الفكرية والتحاليل، ولا نصدّق الآباء بكل بساطة قلب، كيف يمكننا ان نحتمل القول عن انسان انه يقتني بهاء الله؟ فقد أحسن يوحنا اذاً بكشفه لنا في سفر الرؤيا انه «على الحصاة اسم جديد مكتوب لا يعرفه احد غير الذي يأخذ» (رؤ ٢ : ١٧). ليس انه يتعذر اطلاقاً على من لا يقتني الحصاة ان يعرفه، لكنه لا يعرف حتى وجوده، الا اللهم اذا اعار اذناً صاغية لمن رآه. انه يحتسب المعاينة الحقيقية بمثابة عمىً، ليس لانها كسحابة مقدسة تتسامى على الحواس والمعرفة، بل لانه لا وجود لها اطلاقاً في رأيه. واذا كان شريراً، عن جهل وعدم تصديق، حتى وصول الشر به الى الافتراء، اذا كان يتولى افكاراً باطلة، اذا كان يتجاسر على ازدراء الآباء الاكثر جلالاً، فهو لا يكتفي بأن يقرر عدم وجود المعاينة بل، في مخيّلته الشيطانية - ويا للشقاء! - يدلي بتعليم كاذب باطل عن البهاء الالهي. كما تقول، ايها الاخ، لقد بلغ الامر بالبعض اليوم الى هذا الحد.

النور الحقيقي

٤٠ - واليك الحجة الاخيرة التي يستنجدون بها: «الله غير منظور بينما الشيطان يتشبه «بملاك نور» (٢ كو ٧ : ١٤). ولكنهم لا يفهمون ان الحقيقة تسبق التشبه والتصنع. فإذا كان الشيطان، في تشبهه بالحقيقة الحقيقية، يتشبّه بملاك نور، فلأن هناك حقيقةً ملاك نور، هو الملاك الصالح. فما هو النور الذي يبديه بوصفه ملاك نور؟ اليس نور الله الذي هو ملاكه؟ فالله اذاً

هو نور وملاك الله هو ملاك ذلك النور، اذ لم يكتب انه «يتشبه بالملاك الذي هو نور» بل «بملاك نور». اذا كان الملاك الشرير يتصنّع ويتظاهر فقط بالمعرفة والفضيلة قد يظن ان الاستنارة التي تأتينا من الله لا تأتينا الا بالمعرفة والفضيلة. ولكن ما دام الملاك الشرير يأتي ايضاً بنور وهمي يختلف عن الفضيلة والمعرفة، فذلك لان هناك نوراً عقلياً حقيقياً الهياً يختلف عن الفضيلة والمعرفة. اما النور الوهمي فهو «الشرير» نفسه، الذي هو ظلمات ولكنه يتشبه بالنور، في حين ان النور الذي ينير، في ضوء الحقيقة، الملائكة والبشر المماثلين للملائكة، هو الله نفسه الذي هو حقيقةً نور سري يستعلن كنور ويحوّل أنقياء القلوب ايضاً الى نور. فيسمّى اذاً نوراً ليس فقط لانه يلاشي ظلمات الجهل، بل ايضاً لانه ينير النفوس، حسب قول القديس مكسيموس والقديس غريغوريوس اللاهوتي. وستفهم بوضوح من القديس نيلوس ان هذه الاستنارة ليست فقط معرفة او فضيلة، بل انها تسمو على كل فضيلة ومعرفة بشريتين، فيقول: «الذهن المتجمّع في ذاته لا يعود يعاين اي شيء حسي او فكري بل ارواحاً مجرّدة واضواء الهية، يجري منها السلام والفرح».

أتلحظ المعاينة التي تفوق كل عمل وكل طريقة كيان وكل محاكمة فكرية؟ أسمعت الذي قال اعلاه انه كان «يعاين ذهنه لابساً نوراً سماوياً» والذي يكشفه لنا الآن جلياً مستنيراً بضوء الهي؟ فاقتنع بتعليمه حين يدلّك على الطريق التي تقود الى هذه الخبرة المغبوطة وهذه الرؤية. فهو يقول: «ان الصلاة التي تتوخى الانتباه سوف تجد صلاة يجب المبادرة اليها بتيقّظ واحتراس. لان الذي صلّى حقيقةً، رابطاً ذهنه بالصلاة الالهية، هذا يستنير ببهاء الله» (إفاغريوس، «في الصلاة»). اتريد ان تسأل مكسيموس الالهي ايضاً؟ فهو يقول: «من جعل قلبه نقياً فلن يعرف فقط علّة الاشياء الدنيا والثانوية نسبة لله، بل هو يعاين الله نفسه» (المئويات العرفانية ٢ : ٨٠).



رؤية تفوق المعرفة

٤١ ـ اين هم الذين يعلّمون ان الحكمة الدنيوية التي جُهلت تأتي بمعرفة الكائنات وترفع نحو الله ؟ فقد قيل : «ان الله الذي اضحى حاضراً في هذا القلب يرتضي ان يسجّل فيه رسالته بالروح القدس كما على لوحي موسى» (مكسيموس، المئويات العرفانية ٢ : ٨٠) . اين هم الذين يعتقدون انه يتعذر اقتبال الله في قلبنا ، في حين ان بولس قبل الآخرين يقول ان شريعة النعمة قد اقتُبلت «لا في الواح حجرية بل في الواح قلب لحمية» (٢ كو ٣ : ٣) ؟ كما يقول ايضاً مكسيموس العظيم : «ان القلب يدير كل الجسم وحين تتولى النعمة القلب فهي تملك على كل الافكار والاعضاء . فهنا الذهن وكل أفكار النفس . فهنا اذاً يجب ان نتبين ان كانت النعمة قد سجّلت شرائع الروح» (العظة ١٥ : ٢٠ B ٣٤,٥٨٩ P.G.) . ولكن لنستمع الى مكسيموس ايضاً يقول ان النقاوة قد انارت بالمعرفة وبأكثر من المعرفة : «فالقلب النقي هو القلب الذي قدّم لله ذهناً خالياً كلياً من اي شكل، ومهيّأ لان يختم فقط بالسمات التي يستعلن بها الله عادة» (المئويات العرفانية ٢ : ٨٢ A ١١٦٤، P.G.× C) . اين هم الذين يؤكدون ان الله لا يُعرف الا عن طريق معرفة الكائنات، رافضين ان يعرفوا ويتقبّلوا الظهور الناجم عن الاتحاد ؟ هذا في حين ان الله قال بفم احد الآباء المتوشحين بالله : «لا تتتلمذوا لانسان او لكتاب ، بل لبهائي واشعتي التي فيكم» . الذهن الخالي من كل شكل، والموسوم بالعلامات الالهية، كيف لا يكون اسمى من المعرفة الحاصلة من الكائنات ؟

معرفة الكائنات والرؤية الميستيكية

٤٢ ـ ولكن الختم الموسوم به الذهن بسمات الروح الالهية والسرية يختلف ايضاً كثيراً عن اللاهوت التنزيهي الذي يرفع العقل نحو الله . فاللاهوت بعيد عن رؤية الله في النور ومختلف عن مناجاة الله بُعدَ واختلافَ المعرفة عن الاقتناء . ان قول شيء عن الله لا يعادل لقاءً مع الله ! قول شيء يحتاج الى

الكلمات وايضاً الى اصول الكلام، الا اذا كنا نروم اقتناء المعرفة فقط دون استخدامها او نقلها الى الآخرين. انه يحتاج ايضاً الى مادة الاستدلالات وضرورات البرهنة المتنوعة، يحتاج الى كل الامثلة التي في العالم. اننا نقتبسها كلها او اكثرها بواسطة النظر او السمع ومعظمها موجود في هذا العالم. فحكماء هذا العالم يستطيعون اذاً هم ايضاً استخدامها دون ان ينقّوا حياتهم ونفوسهم. اما نحن فالبعكس لا نستطيع ان نقتني الله فينا ولا ان نعاشر الله في نقاوة، ونمتزج قدر امكانات الطبيعة البشرية بالنور الصافي الذي لا شائبة فيه، الا اذا تنقينا بالفضيلة وخرجنا من انفسنا، او بالاحرى تجاوزنا انفسنا تاركين الاحساس وكل الحسيات معه، مرتفعين فوق الافكار والاستدلالات والمعرفة التي تأتي بها، لنستسلم كلياً لقوة الصلاة اللاهيولية والعقلية، لكي نلتقي الجهل الذي يفوق كل معرفة، ونمتلىء فيه بجمال «الروح» البهي، حتى نعاين بصورة غير منظورة مزايا طبيعة الدهر الخالد الابدي. هل تدرك في اية هاوية رُميت وخُذلت فلسفة العقل التي بالغوا في تعظيمها ؟ فمبادئها تنشأ عن الاحساس، وغايتها معرفة مختلف اوجه هذا الاحساس، وهي معرفة نكتسبها بصرف النظر عن النقاوة، وهي لا تنقّي من الاهواء. اما مبدأ المعاينة الروحية فهو بالعكس «الصلاح» الناجم عن نقاوة السيرة. وهو ايضاً معرفة حقيقية واصيلة للكائنات، والحقيقة الواقعية التي ليست حصيلة الدراسات، بل تتراءى مع النقاوة وتستطيع وحدها التمييز بين ما هو صالح ونافع حقيقةً وما هو ليس كذلك. ان الغاية التي تتوخاها المعاينة الروحية هي رهن الدهر الآتي، الجهل الذي يتجاوز المعرفة، والمعرفة التي تتجاوز كل تصور (concept)، المشاركة السرية «للسر» والرؤية التي لا يعبّر عنها، المعاينة والمذاق السري (mystique) والخفي للنور الابدي.

طبيعة النور الاخروية

٤٣ ـ ان كنت تسمع وتفهم ما اقوله لك فسوف تعرف ان هذا هو حقاً نور الدهر الآتي : النور عينه الذي انار التلاميذ عند تجلي المسيح، والذي ينير منذ



الآن الذهن المتنقي بالفضيلة والصلاة. ان ديونيسيوس الأريوباغي قال بوضوح ان اجساد القديسين في الدهر الآتي تزدان وتستنير بنور المسيح الذي ظهر على ثابور (في الاسماء الإلهية ١ : ٤ P.G. ٣,٥٩٢ BC). اما مكاريوس العظيم فيقول ايضاً : «ان النفس المتحدة بنور الصورة السماوية تتلقّن، في اقنومها منذ الآن معرفة الاسرار. اما في يوم القيامة العظيم فسيستنير جسدها ايضاً بصورة المجد السماوية نفسها» (De Libertate mentis 24 P.G. ٣٤,٩٥٧ B) قال «في اقنومها» لكي لا يعتقد احد ان هذه الاستنارة ناجمة عن المعرفة والافكار والتصورات : فإن اقنوم الانسان الروحي مؤلف من ثلاثة اجزاء : نعمة الروح السماوي والنفس العاقلة والجسد الارضي. اسمعه ايضاً يقول : «ان صورة «الروح» ذات الشكل الالهي، وكأنها مطبوعة في داخلنا منذ الآن، سوف تمنح الجسد نفسه حينذاك طابعاً سماوياً ذا شكل الهي من الخارج». وايضاً : «ان الله المتصالح مع البشرية يعيد النفس التي تقبلت الايمان الحقيقي الى التمتع بالانوار السماوية، مع وجودها بعد في الجسد. انه ينير من جديد حواسها العقلية بنور النعمة الالهي. وسوف يُلبس الجسد نفسه المجد فيما بعد». وايضاً : «وحده يدرك بعيون النفس اية خيرات واية اسرار تستطيع النفوس المسيحية ان تشترك فيها منذ هذه الحياة الدنيا : من نالها بالخبرة. ولكن، في القيامة، يستطيع الجسد نفسه تلقي مثل هذه الخيرات ومعاينتها، وكأنه يقتنيها، حين يغدو هو بالذات «روحاً قدساً» (العظة ٥ : ١١ P.G.٣٤,٥١٦ CD). أليس جلياً ان هناك نوراً واحداً إلهياً، هو نفسه : في النور الذي عاينه الرسل على ثابور، وفي النور الذي تعاينه منذ الآن النفوس النقية، وفي النور الذي هو واقع الخيرات الابدية المقبلة ؟ لذلك قال باسيليوس الكبير، من جهته، ان النور الذي تدفّق على ثابور عند تجلّي الرب كان مقدمة لمجد المسيح عند مجيئه الثاني (في التعليق على المزمور ٤٤ CD ٢٩,٤٠٠ P.G.). وهو يقول بالوضوح نفسه في موضع آخر : «ان القوة الالهية حين انارت الذين كانوا قد نقوا عيون قلوبهم كانت تتراءى كنور الهي من خلال غشاء بلُّوري رقيق، اي من خلال الجسد الذي كان الرب قد استعاره منّا».

أفليس اذاً هو واقع الحقيقة عينه الذي اضاء على ثابور بكثافة كافية ليتيح لعيون الجسد نفسها ان تتقبله، حسب مشيئته ؟ كان منظورا في قلب جميع الذين كانوا قد نقّوا قلوبهم، لانه كان يتدفق من الجسد المسجود له كمن شمس مذهلة ومرعبة اياهم ولافّة قلوبهم نوراً. «يا ليتنا نحن ايضاً نكون معهم ونعاين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة». فيحسن بنا نحن ايضاً، الذين نثق بهذه الاقوال، ان نشارك المعلّم الكبير في هذا التمني الذي ابداه هنا.

طريق الاتحاد

٤٤ ـ ولكن هذا النور العظيم عاينه الانقياء، عند التجلي، لانه كان قد اتى الينا في الجسد، وكان يتراءى لنا في ذلك الجسد. اما الآن فكيف يعاينونه، وكيف يمكن معاينته ؟ ان اردت معرفة ذلك فاذهب وتعلّمه لدى الذين يعاينون. فأنا ايضاً تعلّمته لديهم، واني اقول مثل داود :«آمنت ولذلك تكلمت» (مز ١١٥ : ١). ويقتضي اضافة ما قاله الرسول ايضاً : «نحن ايضا نؤمن ولذلك نتكلم» (٢ كو ٤ : ١٣). من انفصل وتجرّد عن الغنى المادي والمجد البشري واللذة الجسدية ليعتنق الحياة الانجيلية، من توطّد في هذا التجرد بخضوعه للذين بلغوا الى حالة الانسان الكامل على قياس قامة المسيح (انظر أف ٤,١٣)، هذا يرى المحبة اللانفعالية والمقدسة والالهية تضطرم فيه للغاية، فيشتهي الله بصورة فائقة الطبيعة، والاتحاد به الذي يسمو على هذا الكون. واذ تستولي عليه هذه المحبة كلياً يرى من الضروري ان يفحص ويراقب بعناية قدرات الجسد وقوى النفس : لعله يلقى فيها طريقة للاتحاد بالله ؟ انه يجد، إما بذاته او بالالمام بتعليم ذوي الخبرة، ان بعضها لا معقولة اطلاقاً، في حين ان الافعال الاخرى، حتى اذا حوت عنصراً عقليا، تكاد لا تقاوم الاحساسات. اما تكوين الرأي والمحاكمة الفكرية فهما، مع كونهما قوتين عاقلتين، لا يتحرران من مركز الاحساسات اي المخيلة. ومن جهة اخرى يفهم بحكمته ان الذهن النفساني هو العضو الذي به يتحققان. وقد قال الرسول



ذلك ايضاً : «الانسان النفساني لا يقبل ما لروح الله» (١ كو ٢ : ١٤)، فيبحث حينذاك عن الحياة التي تتجاوز كل ذلك، الحياة العقلية حقاً، والتي لا تختلط بالارضيات، ويصغي الى اقوال نيلوس الحكيم في الالهيات : «حتى اذا ارتفع الذهن فوق المعاينة الجسدية، فهو ليس له بعدُ الرؤية الكاملة لمقرّ الله. اذ قد لا يكون الا في مستوى علم المعقولات فيشارك تعدّديتها» (افاغريوس في الصلاة ٥٧). وايضاً : «ان الذهن، حتى في حال قيامه في الافكار البسيطة غير المتعددة، يبقى بعيداً جداً عن الله» (كذلك ٥٦).

هناك ملكة خاصة بالذهن : ان يجد الله في ذاته

٤٥ ـ ولكنه يتعلم من ديونيسيوس العظيم ومكسيموس الذائع الصيت ان ذهننا يمتلك، من جهةٍ، قدرة ادراكية لمعاينة المعقولات، ومن جهة اخرى، الاتحاد الذي يسمو على طبيعة الذهن، والذي يتيح له ان يتعلق بما يفوقه. فيبحث بالتالي عن هذه الملكة العليا التي نمتلك، عن هذا الكنه الفريد والكامل والبسيط وغير قابل الانفصال اطلاقاً عن طبيعتنا، هذه الملكة التي تحدد وتوحّد تحاليل العقل التي يبنى عليها اليقين العلمي، والتي تسعى وتتقدم بالتقلّص والتجزّؤ كالحيوانات الزاحفة تقريباً. تلك الملكة هي، اذاً، شكل الاشكال. فإذا نزل الذهن الى هذه الاشكال وبها الى الحياة المنوّعة، ناقلاً القوى الى كل الملكات، فهو مع ذلك لا يفتأ يمتلك قوة اخرى اعلى من تلك. ويستطيع ان يستخدمها بذاته، ما دام يستطيع ايضاً ان يستمر بذاته، عند انقطاعه عن نهج الحياة الحاضرة، النهج المتقلب والمتعدد الالوان والارضي المبتذل. مثلُ الذهن مثلُ الفارس الذي يمتلك قوة تختلف عن القوة التي يستخدم لقيادة الفرس وتعلو عليها. وهو يقدر ان ينشّطها في ذاته، ليس فقط عندما يكون قائماً على الارض، بل ايضاً على الفرس او على مركبته، شرط عدم استسلامه كلياً الى الانتباه المطلوب للقيادة. والذهن ايضاً، ان لم يكن متّجهاً الى هذه الحياة الدنيا كلياً ودوماً، يتمتع بقوته العليا والاسمى. صحيح

انه يفعل ذلك بصورة اصعب بكثير من الفارس، لانه مرتبط بالجسد بالطبيعة ومشتبك وملبّك بمعارف الاشكال الجسدية، والعلاقات المختلفة التي يعسر ابعادها، والناجمة عن حياة هذا الدهر. اذاً عندما يعطي الذهن ذاته لقوته تلك الخاصة به، فيرجع الى ذاته ويتيقظ في داخله، عندما يتعالى بهذه القوة فوق ذاته، يستطيع حينذاك ان يتّحد بالله.

طريق الهدوئية

٤٦ - ولذا من يريد ان يعيش مع الله بولهٍ يهرب من الحياة المعرّضة للدينونة. يختار السيرة الرهبانية الغريبة عن الزواج. يبتغي ان يسكن بدون اضطراب ولا همّ في هيكل الهدوئية، بعيداً عن كل علاقة خارجية. وهناك يفكّ ارتباط نفسه من كل رباط مادي، قدر الامكان، ويربط ذهنه بالصلاة غير المنقطعة الى الله، وبها يجمّع ذاته كلياً في ذاته، ويجد طريقة جديدة سرية للصعود الى السماوات: هي ما يمكن ان نسميه الظلام غير المدرك، ظلام الصمت الملقِّن. فيربط به ذهنه بحرص وبفرح سرّي، في هدوء البساطة، وكلّي، ومليء بالوداعة، في راحة وفي سكوت حقيقي، فيحلّق فوق الكائنات. واذ يخرج هكذا كله من ذاته، معطياً ذاته كلياً لله، يرى مجد الله، ويعاين النور الالهي الذي لا يقع تحت الحواس، كحواس، بل هو الرؤية المحببة والمقدسة التي تراها النفوس والقلوب الكلية النقاوة. بدون هذا النور لا يقدر اي ذهن ان يرى بحسّه العقلي، في اتحاده بما يفوقه، كما انه ليس من عين جسدية تبصر بدون نور حسّي.

تنازلات الهية

٤٧ - ان ذهننا يخرج اذاً من ذاته ويتّحد هكذا بالله. ولكنه يفعل ذلك متفوقاً على ذاته. والله من جهته يخرج ايضاً من ذاته ويتّحد هكذا بذهننا. ولكنه يفعل ذلك «تنازلاً» (مكسيموس، المئويات العرفانية ١ : ٣١ P.G. × C, ١٠٩٣ D) : «انه



لفرط صلاحه يخرج من ذاته، دون ان يتجزأ، هو الذي فوق الكل والمتعالي على كل شيء، وكأنه قد افتتن بمحبته وحنانه» (ديونيسيوس، في الاسماء الإلهية ٤ : ١٣ P.G. ٣,٧١٢ AB). بهذا الاتحاد نفسه الذي يتجاوز الذهن، يتّحد بنا. علماً بأن الله لا يتحد متعطفاً بنا فقط، بل ايضاً بالملائكة السماويين. فالقديس مكاريوس ايضاً يعلّمنا ذلك اذ يقول: «ان العظيم والفائق الجوهر يصغّر ذاته بالصلاح غير المتناهي ليستطيع مخالطة خلائقه العقلية، اعني نفوس القديسين والملائكة، حتى يقدروا هم ايضاً، بفعل ألوهته، على الاشتراك بالحياة الخالدة» (De elevatione mentis 6, P.G. ٣٤,٨٩٣ C). كيف يمكنه الا يصل إلى هذا الحد في عطفه، هو الذي تنازل حتى الى الجسد، جسد الموت (انظر رو ٧ : ٢٤) موت الصليب (في ٢ : ٨)، لينزع ستار الظلمات الذي وقع على النفس بعد السقوط، وليعطيها من نوره، كما علّمنا القديس نفسه في الفصل المذكور في البداية ؟ (المقطع ٣).

رؤى صحيحة ورؤى كاذبة

٤٨ - ارتعدوا اذاً يا عديمي الايمان الذي يحضون الآخرين على الكفر، ايها العميان الذي يرومون قيادة العميان (انظر متى ١٥ : ١٤)، انتم الذين تبتعدون جداً عن الله مجتذبين الآخرين معكم، انتم الذين تعلّمون ان الله ليس نوراً، بحجة انكم لا ترون، انتم الذين ليس فقط تحوّلون عيونكم عن النور لتلجأوا الى الظلمة، بل ايضاً تدعون النور ظلاماً، وتُبطلون لذواتكم تنازلاً الهياً عظيماً كهذا! ما كنتم بلغتم الى هذا الكفر لو صدّقتم اقوال الآباء، لان الذين يصدّقونها يُجلّون لا المواهب الخارقة فقط، بل ايضاً المواهب المعرّضة للجدال. اذ يقول القديس مرقس «ان هناك نعمة يجهلها الطفل، الا انه لا يجب رذلها، لانها قد تكون صحيحة، ولا قبولها لانها قد تقود الى الضلال» (٢٦ : ٢ opusc D ٦٥,٩٣٣ P.G.). هناك اذاً، كما ترى نعمة حقيقية ولكنها تختلف عن الحقيقة العقائدية. اذ ما هو القابل للجدال في الحقيقة العقائدية ؟ هناك بالتالي

نعمة فاعلة وجليّة تفوق المعرفة. وبسببها ليس من الورع ان نحتسب بالضرورة ضلالاً النعمة التي لم تختبر بعد. لذا ينصح نيلوس الالهي ايضاً ان نطلب الى الله ايضاح مثل هذه الظواهر، فيقول: «صلّ حينذاك بحرارة حتى ينيرك الله نفسه ويوضح لك ان كانت الرؤية منه، وحتى يطرد الضلال بعيداً منك بأسرع وقت ان كانت ليست منه». ولا جرم ان الآباء لم يفتهم ان يفسّروا لنا ما هي علامات الضلال وعلامات الحقيقة. «فالضلال، حتى لو تشبّه «بالصلاح»، حتى لو تزيّا بمظاهر برّاقة، لا يمكنه ان يتسبب في عمل صالح: لن يجعلنا نبغض العالم ولا نزدري مجد البشر، ونشتهي السماويات ونردع الافكار السيئة. لن يجلب لنا الراحة الروحية والفرح والسلام والاتضاع. لن يوقف الملذّات والاهواء ولن يجعل النفس حسنة الاستعداد، لان كل هذه الفضائل تحدثها النعمة، في حين ان الضلال يحدث عكسها». لقد سبق للبعض ايضاً ان حدّدوا بخبرتهم الكبيرة ميّزات الرؤيا العقلية: فيمكن اذا ان نتبيّنها من خلال نتائجها. فقد قيل: «سوف تعرف، اذاً، ان كان النور الذي اضاء في نفسك يأتي بالطبيعة من الله، او من الشيطان، من جرّاء نتائجه: وهكذا لن تحتسب مبيد الضلال مخادعاً، ولا الضلال حقيقة». (De pa- ٣٤،٨٧٦ D .(tientia 13 P.G.

لا احد معصوم عن الضلال

٤٩ ـ لكن النور المنزّه عن الضلال لا يهبنا في الدهر الحاضر العصمة عن الضلال. «من يقلْ هذا فهو من حزب الذئاب»، حسب احد الآباء. فلينظروا اذاً كم ابتعد عن الحقيقة الذين يتذرعون ببعض الضعفات البشرية ليقولوا ان من نالوا النعمة هم في الضلال! فهم لا يسمعون كاتب السلّم يقول لنا: «الملاك وحده، لا الانسان، يقدر ان يتجنّب الضلال الناتج عن الخطايا» (المقالة الرابعة). وايضاً: «ان البعض يعرفون اتضاعهم من ضعفاتهم، وبفضل اخطائهم استمالوا ام المواهب». لا يجب ان نلتمس في الناس لاهوىً ملائكياً بل لاهوىً بشرياً: فحسب القديس نفسه «سوف تعرف دونما خطإ ان اللاهوى



فيك من شعورك بفيض من النور لا ينطق به وبحبٍّ للصلاة لا يعبّر عنه». وايضاً : «فقط النفس المتحررة من كل ميل سيّء تعاين النور الالهي. اما معرفة العقائد الالهية فكم كثيرون مقتنوها وهم في هذه الميول». وايضاً : «ان ذوي النفوس الضعيفة يعرفون نظرة الرب فيهم من علامات أخرى غير هذه، بينما الكاملون يعرفونها من حضور الروح». وايضاً : «ان ازدياد الاتضاع عند المبتدئين يدل يقيناً على تقدمهم حسب مشيئة الله، وعند المتوسطين يدل على ذلك انسحابهم من امام القتالات، وعند الكاملين تكاثر النور الالهي وفيضه» (يوحنا السلمي، المقالة ٢٦).

درجات الكمال

٥٠ ـ اذاً، لو كان هذا النور العقلي لا يأتي بالمعرفة كما يقول الآباء، بل هو نفسه معرفة، لكانت سيرة سليمان الحكيم اكثر كمالاً وارضاءً لله من سيرة جميع القديسين منذ بدء الدهور ما دامت وفرة هذا النور دليل كمال يرضي الله. هذا ولست اتكلم عن الهللينيين الذين نعجب بهم لوفرة حكمتهم! ولكن ما دام هذا النور ينير احياناً بعض المبتدئين ايضاً، وان بوضوح اقل، وما دام، من جهة اخرى، يزيد الكاملين تواضعاً، وان اختلفت هيئته عن نور المبتدئين، فيضيف الأب نفسه : «ان الامور الصغيرة ليست صغيرة عند الكاملين والامور الكبيرة ليست كاملة كل الكمال عند الصغيرين». ولكن سوف تعرف بجلاء ان محبة الله للبشر ترتضي ان تنير النعمة هؤلاء القوم ايضاً. اسمع فقط ما يقول ذياذوخس الرائع : «اننا عادة نحسّ في البدء احساساً شديداً بأن النعمة تنير النفس بنورها الخاص، بينما هي تفعل اجمالاً في وسط القتالات دون ان تُعرف» (المقالة ٦٩). وبحسب نيلوس المتكلم في الروح : «ان الروح القدس يشفق على ضعفاتنا فيأتي ليزورنا حتى ونحن غير انقياء. فإن وجد ذهننا مصلياً وراغباً في الصلاة الحقيقية، يدخل اليه ويشتت كل جحفل المحاكمات العقلية والافكار التي تحدق به» (افاغريوس، في

الصلاة ٦٢). والقديس مكاريوس يقول : «ان الله صالح، ولمحبته للبشر يلبّي طلبات الطالبين اليه. والنعمة الالهية تأتي وتسكن احياناً في الذي يضني ذاته في الصلاة، وان كان لم يُبد غيرة معادلة لاقتناء الفضائل الاخرى. فتعطى له الصلاة، في الفرح، على مقدار النعمة، حسب طلبه الى الله. الاّ انه يبقى مجرداً من سائر الصالحات الاخرى. ولكن عليه ان لا يهمل هذه الصالحات بل ان يجعل قلبه، بالمثابرة والممارسة في هذا الجهاد، مرضياً ومطيعاً لله، لكي يتوخى ويقتني كل الفضائل. وهكذا فإن موهبة الصلاة المعطاة له من الروح سوف تثمر شيئاً فشيئاً، وتجلب معها تواضعاً حقيقياً ومحبة حقيقية، وكل سلسلة الفضائل التي كان قد التمسها منذ بدء جهاده».

الله وحده يحكم

٥١ ـ هل ترى اهمية هذا التذكير ؟ فإن الآب يعيد بناء ما بقي للبناء، ولكن دون ان ينبش الاساسات بحجة ان الجدران لم يُعَدْ بناؤها بعد، ولا يهدم الجدران لان السقف لم يُمدّ فوقها . . فهو يعرف ويدرك بنتيجة الخبرة ان ملكوت السماوات الذي فينا يزرع مثل حبة خردل : انها اصغر كل البذور ولكن متى نمت كانت اكبر البقول، فتسمو على سائر قوى النفس، حتى ان طيور السماء تأتي فتعشش في اغصانها (متى ١٣ :٣١ ـ ٣٢). ولكن هؤلاء القوم الذين تتكلم عنهم يأتون ويصدرون احكامهم لانه ينقصهم التمييز، وهم، لعدم الخبرة، مجردون من كل ما كان يمكن ان يحووه لنفع الاخوة. انهم يستولون بوقاحة على الحكم العائد لله : فمن يختارونه يعلنون انه وحده دون غيره جدير بالنعمة. لان لله وحده ان يعيّن الجديرين بنعمته. اذا كان هو قد قبل انساناً، «فمن انت لتدين عبد غيرك»، يقول الرسول (رو ١٤ : ٤)؟ اما نحن فلنعدْ الى نقطة انطلاقنا ولننهِ هذا البحث ـ الذي كاد ان يطول جداً ـ بإضافة بضعة كلمات بعد.



التنقية شرط المعرفة

٥٢ ـ من لا يؤمن بسرّ النعمة الجديدة هذا العظيم، من يجهل رجاء التألّه، لا يستطيع ان يرذل لذة الجسد والمالَ والغنى والمجد البشري. واذا استطاع ذلك لفترة وجيزة، انتابه الافتخار ببلوغه الكمال، فيعود ويسقط في زمرة غير الانقياء. من يبتغِ ذاك الرجاء، حتى ولو عمل كل الصالحات، يفتش عن الكمال الاكثر من كامل واللامتناهي: انه لا يحتسب انه اكتسب اي شيء فيتوغل في الاتضاع. يذكر تارة تفوّق القديسين الذين سبقوه، وتارة فيض المحبة الالهية للبشر. يبكي ويصرخ كأشعياء: «ويلي! اني نجس ودنس الشفتين وقد رأت عيناي رب الجنود» (انظر اش ٦ : ٥). ولكن هذه الدموع تزيد التنقية، ورب النعمة يضيف اليها التعزية والاستنارة. لذا فإن يوحنا الذي يعلّم عن خبرة يقول لنا: «ان لجة النوح عاينت تعزية، ونقاوة القلب اقتبلت اشراقاً» (السلّم الى الله المقالة ٧ : ٥٥). فالقلب النقي، اذاً، هو الذي يقتبل هذه الاستنارة، بينما يستطيع حتى القلب غير النقي اقتبال ما يمكن قوله او معرفته عن الله. فجليّ، بالتالي، ان هذه الاستنارة تفوق كل قول وكل معرفة، ولو دعوها «معرفة» و«ادراكاً»، لان الروح القدس هو الذي يهبها للذهن. فقد قيل: «انه وجه آخر للادراك، وجه روحي يتعذر بلوغه حتى للقلوب المؤمنة، الا اذا تنقّت بالاعمال». ولذا فمن يهب المعاينة ومن هو نفسه موضوعها، أعني الله نور القلب النقي، يقول: «طوبى لأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله» (متى ٥ : ٨). فلماذا يطوِّبون ان كانت هذه المعاينة معرفةً نقتنيها نحن غير الانقياء؟ فمن استنار وعرّف الاستنارة تكلّم اذاً حسناً: «فالاستنارة ليست معرفة بل قوة أو«فعل لا يوصف نعاينه دون ان نبصره حسياً، ونفطن له دون ان ندركه ونفقهه» (السلّم، ٧ : ٥٥)، ما دام هذا الادراك ليس من نطاق العقل. هذا واني استطيع ان استشهد بأقوال اخرى، ولكني اخشى ان تكون حتى هذه قد عُرضت باطلاً. لانه حسب القديس نفسه: «من يشاء ان يصف بالكلام الشعور بإشراق الله في النفس وقوته للذين لم يذوقوه يشبه من يريد ان يبيّن بأقواله وتشابيهه حلاوة العسل لمن لم

١٢٥

يذوقوه البتة».

ولكن ابحاثنا هذه موجهة اليك، لكي تعرف الحق وتقرّ باننا نحن ايضاً على وفاق مع اقوال الآباء. فتفحّص، اذاً، بقية شهاداتهم المدوّنة ادناه». (١)

---

١) ان مجموعةً لاقوال الآباء مماثلة للتي ألحقت بالبحث الاول كانت مدوّنة في المخطوطة الاصلية، ولكن النسخ التي في حوزتنا لم تحتفظ بها.

فهرست

طبعة اولى

كانون الثاني ١٩٩٥



منشورات التراث الآبائي

١٩٩٥